

ليلي انحايلة

محررات

kitabweb-2013.forumsmaroc.com

يهود أسفي

خلال القرن 16م



2015

ليلى انحايلة

يهود أسفي

خلال القرن 16

2015

منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر

الكتاب:

يهود أسفي خلال القرن 16

المؤلفة: ليلى انحيلة

الإيداع القانوني: 2014 MO 2805

ردمك: 8 - 143 - 34 - 9954 - 978

الطباعة والنشر

مطابع الرباط نت



Av Hassan II Cité A. Manar n° 6/3 - Rabat
05 37 20 46 32 - 06 61 20 37 76
imprimerierabatnet@gmail.com

مقدمة عامة:

لقد عاشت بعض الأقليات في المغرب ومنذ فترات تاريخية سابقة، داخل عدد من المدن العتيقة التي لا تزال شاهدة على ذلك، واحتفظ لنا تاريخ المغرب ببعض ما تركت، في حين اندثر أغلبه أو بالأحرى اختفى.

ومن بين أبرز الأقليات التي نجد لها بصمة حاضرة في مختلف مراحل تاريخ المغرب، الفئة اليهودية التي أثرت وتأثرت بمجريات الأحداث داخل وخارج المغرب على حد سواء، مما جعلها مثارا للعديد من الدراسات والأبحاث الأكاديمية، التي ساهمت في التعريف بهذه الفئة وبكل مميزاتها.

لقد شكلت هذه الفئة عن طريق احتكاكها بالمجتمع المغربي، نسيجاً مختلطاً -إن صح التعبير- ينهل من الثقافتين: اليهودية والإسلامية، الأمر الذي أفرز بنيات فكرية معينة، ميزت المدن المحتضنة لها عن غيرها، كما هو الحال بالنسبة لمدينة أسفي موضوع الدراسة في هذا العمل.

شهدت هذه المدينة وبصفة خاصة خلال الفترة الحديثة من تاريخها حضوراً يهودياً مهماً، نظراً للطرفية العامة التي دفعت فئة عريضة من اليهود إلى النزوح إلى بعض المدن المغربية وخاصة الساحلية، كما هو الحال بالنسبة لأسفي وذلك ما سنتطرق له بالتفصيل في المحور الخاص بالأصول الإثنية لليهود مدينة أسفي.

إلا أن ما يميز في الحقيقة المدينة عن غيرها هو كونها لم تكن ذات صيت واسع قبل الفترة المذكورة، كما هو الحال بالنسبة للمدن السلطانية (فاس، مراكش ...) على سبيل الذكر لا الحصر، أو المدن العتيقة، وبالتالي حتى الإرث المكتوب الذي يسمح بالتعرف على تاريخها، يمكن القول أنه مبتور.

إن المتأمل لهذه المعطيات يلاحظ صعوبة في ضبط قنم الوجود اليهودي بالمدينة، نظراً للضبابية التي تحيط بالموضوع من جهة، إضافة إلى كون هذه المدينة لم تعرف رواجاً تجارياً بنفس القدر

الذي عرفته طيلة التواجد اليهودي من جهة أخرى، حيث لم تحظ فيما سبق بنفس الفرصة مثل احتضان كل تلك الأنشطة الاقتصادية - القطبية التي كانت تلعبها داخل المجال ان صح التعبير - وانعكاس الدينامية الاقتصادية على المجالات الأخرى السياسية والثقافية والاجتماعية بشكل خاص¹.

هذا ما يجعلنا نتساءل حول طبيعة العلاقة التي ربطت هذه الفئة اليهودية بالمدينة وباحتلال البرتغالي في أن واحد، إذ لم يكن مجرد استقرار عادي لفئة داخل نسيج اجتماعي له سماته المميزة. وذلك ما يدفعنا أيضا إلى إثارة مسألة ارتباط هذه الفئة بالاقتصاد ككل، خاصة التجارة، ولا ننفي ارتباطها بمجالات أخرى كالمجال السياسي والدبلوماسي. وإذا كانت هذه الفئة في مدن أخرى قد عاشت في ظل أدوار محدودة - إن جاز التعبير - فإن يهود أسفي اضطلعوا بأدوار بارزة في الشؤون الاقتصادية والسياسية والدبلوماسية.

اختلف يهود هذه المدينة - وهم في الغالب كانوا من "الميفوراشيم" (اليهود النازحون) - عن "التوباشيم" الذين كانوا يتركزون بالمدن العتيقة (اليهود الأصليين)، بوضعهم الاجتماعي وبظروف استقرارهم "الاضطرارية" داخل المراكز والمدن المغربية.

فقد جلب "الميفوراشيم" معهم الخبرات والمعارف التي اكتسبوها في شتى المجالات داخل المجتمعات والدول الطاردة لهم، وقد تميزت هذه المعارف بتنوعها وحدثتها مما ساهم في تقديم لأهم الأدوار الاقتصادية والسياسية خلال هذه الفترة المدروسة²، إضافة إلى كون المدينة أصبحت في هذه الفترة بالذات بوابة

¹ اجتمعت لمدينة أسفي في تلك الفترة الأسباب التي جعلتها تلعب أدورا عدة منها ما هو سياسي محلي ودولي، ومنها ما هو اجتماعي وأيضا ما يرتبط بالموقع الجغرافي.

² هذا لا يعني أن كل اليهود اشتغلوا بنفس الأدوار بل منهم من شغل - نظرا للظرفية العامة - مهنا لم يشغل بها المغاربة لأنها تدخل في إطار "دوني" يمس في ذهنية المغربي بكرامة الإنسان وخاصة المسلم (مفهوم الطهارة والوضوء ...) مثل تنظيف المطامير.

المغرب البحرية، وميناء العاصمة السلطانية مراكش ومن أهم المراكز البرتغالية بالمغرب آنذاك، مع الإشارة إلى أن الإشعاع الذي عرفته المدينة سيتراجع بانتقال الميناء إلى الصويرة مما جعل العنصر اليهودي يسعى إلى تتبع الأنشطة المرافقة له، وبالتالي ستدخل المدينة فصولاً أخرى من الجمود الاقتصادي، مما سينعكس على كل المجالات فيما بعد .

ومما ينبغي الإشارة إلى أهميته أن هذه الفئة قد نجحت في الحفاظ على العلاقة بالطرفين (المغاربة - البرتغاليين) على الرغم من تعارض المصالح بينهما، بل وكان حضورها في أحيان كثيرة إجبارياً للوصول إلى حلول نهائية لبعض القضايا العالقة وهذا من جهة ثالثة معطى آخر يميزهم عن باقي اليهود في المدن الأخرى .

والجدير بالذكر أن الفترة الزمنية (القرن 16) قد اكتسبت أهمية بالغة في هذا العمل، نظراً للحيثيات التي ميزت هذا القرن عن سائر الفترات التاريخية بالمغرب، فمجل الظروف التي ساهمت في بلورة مجريات أحداثه المحلية و"الدولية" - (الاكتشافات الجغرافية - الطرد الجماعي لليهود .. محاكم التفتيش- الاحتلال البرتغالي والإسباني للثغور المغربية - نهاية دولة وبداية أخرى بالمغرب) - تجعل المهتم بهذا القرن يسجل نوعاً من الترابط في التحليل الذي يساهم بنوره في تقريب فهم الأحداث التاريخية التي جرت بالمنطقة.

ساهم الاحتلال البرتغالي في تغيير معالم المدينة الخارجية على مستوى العمران خاصة العسكري (قصر البحر....) وعلى مستوى الدينامية الاجتماعية من قبيل التغيرات التي طرأت على بنية المجتمع، وتخص الاختلاط الإثني (النصارى، واليهود) بالمجتمع الاسلامي، والاجتماعي من ناحية العلاقات التي كانت تربط كل هذه الاطراف فيما بينها والثقافي ايضاً وان كان من الصعب رصد هذه بطنيء. ومما لاشك فيه ان كل هذه التغيرات التي طرأت على المدينة وعلى ساكنتها، ستكون لها انعكاسات على ذهنية المغربي و على نمط عيشه على كافة المستويات.

وبشكل عام فإن التفاعلات الحاصلة في الشؤون الداخلية للمدينة، وحتى للمجالات البعيدة والقريبة المحيطة بها، والوثيرة السريعة التي جرت بها الأحداث، تشير إلى كون هذا القرن كانت له بصمة خاصة في تاريخ المدينة .

وما يزيد هذا القرن تميزا من ناحية الدراسة كون جل الأحداث الحاسمة والبارزة في تاريخ المدينة ستجري بين بدايته ونهايته و لن تستمر بعد ذلك إلا انعكاسات ما جرى مدة يسيرة من الزمن، ستطوى معها صفحة من صفحات التاريخ الدينامي- الفاعل لهذه المدينة الساحلية .

تضمن العمل أيضا دراسة الشقين السياسي والاقتصادي، علما أن الغاية في البداية كانت تسليط الضوء على حياة هذه الأقلية داخل المدينة، بمختلف مكوناتها نظرا للفترة التي تم اختيارها والتي تسمح بالفعل، بدراسة وازنة وقيمة، لولا المشكل الذي تطرحه المادة المصدرية، كون الواقع يعبر عن أشياء تسكت عنها المصادر، نظرا لطبيعتها (عبارة عن وثائق رسمية: مراسلات)، او لقلتها او اختفائها .

فوجود مقبرتين تعودان للفترة الحديثة خاصيتين باليهود، ووجود ضريح كبير ومشهور في المدينة يسمى: ب"ضريح أولاد بن زميرو... "، بالإضافة الى احتكار اليهود لأغلب الحرف والصناعات والشؤون الدبلوماسية بين البرتغال والمغرب، وكون المدينة من نموذج المدن الاستثنائية التي لم تعرف وجود ملاح داخلها، على الرغم من كثرة عدد اليهود بها، كل هذا يجعل المضطلع على هذا العمل يرمي بنقل المسؤولية على المادة المصدرية، التي لا تسعف إلى حد كبير الدارس لهذا الموضوع في الإفصاح عما جرى من أحداث، والتي تجعل عمل الباحث صعبا إلى حد بعيد .

ونظرا إلى إكراهات المادة المصدرية، كان الإعتماد بالأساس على المصادر الدفينة لتاريخ المغرب الأرشييف البرتغالي، والتي تعتبر وبحق بابا كبيرا يلج عبه الباحثون والمهتمون أفاقا رحبة،

يعانقون فيه ضالتهم التي لم يجدوا إليها سبيلا في أغلب المادة المصدريّة المتوفرة لديهم (كتب الإخباريين..).

هذه المصادر التي تنقسم إلى أقسام كبرى تبعاً للأرشيف التابع هو الآخر لدولة من الدول الآتية: إسبانيا - فرنسا - إنجلترا - هولندا .. البرتغال، ويضم كل أرشيف عددا ضخما من الوثائق المجمعة في أجزاء فلكل أرشيف حوالي خمس أو ست أجزاء وفي كل جزء حوالي 200 إلى 700 صفحة.

هذه الأرقام تبين حجم المادة المتوفرة والانعكاس الإيجابي لذلك على البحث التاريخي بالمغرب بصفة عامة، إذ منحت هذه المادة الفرصة لعدد هائل من الأبحاث، لترى النور بفعل الزخم المعلوماتي الذي تتوفر عليه، على الرغم من محدودية المواضيع المعالجة من طرف الرسائل التي تتضمنها، فهي لا تخرج عن الإطار السياسي - الدبلوماسي - الاقتصادي، نظرا لطبيعتها فهي عبارة عن رسائل وتقارير ربطت إحدى الدول الأنفة الذكر بالمغرب في فترة من الفترتين السعيدة أو العلوية .

وحيثما نذكر طبيعتها وهي عبارة عن رسائل تم تبادلها بين دولتين، فإننا نستحضر قضية أو مسألة الرسمية التي تميزها، وما لها من دور في التقيد بمواضيع بعينها عكس الأنواع الأخرى من الرسائل مثلا، التي تلامس في محتواها المجتمع، عن طريق رصد مختلف الظواهر به، لذلك نجدها غنية بالمعطيات الاجتماعية مما حتم علينا الاشتغال على مواضيع بعينها .

وبالرجوع إلى المصادر الدفينة أو الغميسة كما يصطلح عليها، فهي مكتوبة في الأصل أو موجودة بلغة أرشيف البلاد التي سبقت الإشارة إليها، إلا أنه نظرا لصعوبة الإلمام بأغلب لغاتها، فقد وضع تلخيص لفحوى الرسالة أو التقرير، باللغة الفرنسية، الشيء الذي يسمح للباحثين مبدئيا بالاضطلاع على مضامين الرسائل، دون أن يعفوا من ضرورة التوفر على لغة الأرشيف المراد دراسته، حتى تكون دراستهم دقيقة؛ إذ تفرض طبيعة هذه المصادر، التوفر على اللغة البرتغالية بالنسبة لهذا الأرشيف الغني وفي حاجة لإتقان اللغة

العبرية أيضا وهي لغة هذه الفئة من المجتمع، مما يجعله (أي العمل) منفتحاً في المستقبل على العديد من المعطيات التي قد تضيفها مصادر بلغات أخرى.

وقد جاء اختياري للأرشيف البرتغالي من منطلق ملاءمته لطبيعة الموضوع والمجال على حد سواء وحتى للفترة؛ إذ يضم هذا الأرشيف خمسة أجزاء، و يتوفر على معلومات قيمة حول موضوع يهود أسفي، ما لا يوفره أي أرشيف آخر، كما يمنحنا معلومات خاصة يمكننا القول أنها لم ترد في أي مادة مصدرية أخرى غيره نظراً لخصوصيتها - حسب ما توصلنا إليه - .

بلغ مجمل الرسائل التي تمت دراستها ثلاثون رسالة، دون أخذ الرسائل التي تكرر موضوعها في الحساب، وتقتصر ما بين سنتي 1509 و 1542. تنقسم إلى قسمين كبيرين: قسم خاص بالجانب السياسي، وقسم آخر بالجانب الاقتصادي، هذا وتجدون في الفهرس جدولاً خاصاً بالرسائل مصنفة حسب المواضيع .

ولا ينحصر الحديث في هذا البحث حول المصادر الرئيسية فقط بل ينبغي الإشارة إلى المصادر الأخرى ككتب الإخباريين مثلاً على قلتها وإن كانت المعطيات المتوفرة بها قليلة إلا أنها في غالب الأحيان مفيدة حيث نجد على سبيل المثال: مارمول كاربخال "إفريقيا" والحسن الوزان "وصف إفريقيا" وديغور دي طوريس "تاريخ الشرفاء"

أما فيما يخص الدراسات، فقد ركزت أغلبها في حديثها عن اليهود المغاربة على المدن المغربية العتيقة أو الكبرى، نظراً لما توفره هذه الأخيرة من إمكانيات تجعل العديد من الأبحاث منكبة على دراسة جزئيات دقيقة¹ في مدن بعينها، في حين تبقى أخرى دون دراسة، وهذه المعوقات هي نتاج لما ذكر آنفاً ومن أبرز الدراسات التي تمت الاستفادة منها في هذا الموضوع نجد:

¹ هنا نشير إلى ما عثر عليه من دراسات داخل مجلة هسبيريس خامودا، حول الزفاف وأغاني الزفاف بكل التفاصيل وحول أشكال أو الرسوم التي كان يعتمد عليها اليهود في الحلويات وحول الوشم الذي كان يضعه المسجون اليهود داخل السجون المغربية، إلا أنها وللإشارة فقط دراسات أجنبية

المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر / أنطونا (أرمان)، جهة عبدة / الزغراني (حليم)، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب / باكوري (محمد)، اليهود والمخزن في عهد الدولة السعدية / بوشرب (أحمد)، وثائق محاكم التفتيش، مصدر من مصادر تاريخ الثقافة والعقليات بالمغرب خلال القرن السادس عشر / بوشرب (أحمد)، وكالة والإستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور / ندوة، تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة.

كانت هذه بعض الدراسات المهمة التي تم اعتمادها في هذا البحث قصد إغنائه وإن كانت لا تحيط بشكل كامل بعناصر موضوع الدراسة إلا أنها تسد فراغ النقص الحاصل بشكل إجمالي، إذ لا بد من تحقيق تراكم معين للحصول على أرشيف مستقبلي يخدم الجيل اللاحق من الباحثين ويوفر عليهم عناء البحث من جديد.

اعتمادا على ما توافر من المعطيات، حاولنا تتبع مختلف مراحل اندماج هذه الفئة في المجتمع الأسفي، ومختلف الأدوار التي لعبتها على مختلف المستويات السياسية والإقتصادية والاجتماعية وما تركته من بصمات على مستوى الموروث التراثي للمدينة.

الفصل الأول:

الأصول والأوضاع

1- نبذة تاريخية حول مدينة أسفي

أ - طوبونيم المدينة

ب - تأسيس المدينة

ت - التطور التاريخي

2- الوضع السياسي بالمدينة خلال القرنين 15-16م

أ- الأوضاع العامة

ب- الصراعات الداخلية

3- الأصول الإثنية ليهود المدينة

1- نبذة تاريخية حول مدينة أسفي

أ- طوبونيم المدينة

يتوجب الحديث عن طوبونيميا هذه المدينة، وجود توصيف جغرافي للمجال المدروس، إذ لابد من الإشارة في البداية إلى وجود إشكال في الاتفاق بين المؤرخين حول تحديد جغرافي واحد للمجال المدروس، حيث نجد الوزان على سبيل المثال يقول: "تبتدئ ناحية دكالة¹ من تانسيفت غربا وتنتهي على شاطئ المحيط شمالا وعند وادي العبيد جنوبا وأم الربيع غربا تمثل هذه الناحية مسيرة نحو أربعة أيام طولا ويومين عرضا....."².

لم يقدم الوزان في هذه الإشارة إلى المجال سوى حدوده الكبرى مما يترك بعض الغموض في حديثه عن المنطقة، إلا أنه يعطي إشارة إلى شساعة المساحة من خلال الحديث عن عدد الأيام التي يقطعها عابر هذه الناحية. إلا أنه يعطينا توصيفا صحيحا إلى حد معين (الحدود موجودة بالفعل لكنها في غير مكانها).

فحينما يتحدث عن واد تانسيفت كحد من الجهة الغربية فلا ندري الوجهة التي قدم منها فعلا، أو أن الأمر يتعلق بخطأ وقع فيه علما أن الواد في الجنوب الشرقي للمدينة.

وبعيدا عن واد أم الربيع الذي وضعه في الجهة الغربية. في حين يوجد في الجهة الشمالية، وكذلك المحيط الاطلنطي الذي قال عنه إنه في الشمال وهو في الحقيقة في الجهة الغربية فلم يتغير موقعه. إذ من إيجابيات التحديد الجغرافي الذي يكون بالمعالم الطبيعية كالأودية والأنهار والبحار أو المحيطات هوثباتها في الغالب

¹ ناحية دكالة يقصد بها هنا الجهة فحديثه عن دكالة فيه ضمنا حديث عن مدينة أسفي، اعتبارا للحدود التي حدّ بها المجال

² الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة محمد حجي، الطبعة الثانية، 1983، ص 152

- لا توجد في الهامش أي إشارة إلى أن هناك خلطا بينا في حدود بلاد دكالة فشمالها في الواقع يحده نهر أم الربيع وجنوبها تانسيفت غربا المحيط الأطلسي لكن الحد الشرقي الفاصل بين دكالة وثغلة آنذاك غير واضح وربما كان هو الملتقى بين أم الربيع وواد العبيد

في الأماكن التي كانت عليها، إلا بفعل تغيرات تجري على مدار ملايين السنين .

كما انه من المحتمل أن يكون توصيفه الجغرافي للمنطقة خاضعا لقواعد من نوع آخر تتلاءم وطبيعة التكوين باعتباره جغرافيا، اوتتسجم طبيعة المقاربة التي تبناها .

في حين يقول مارمول: "تقع¹ على شاطئ المحيط في طرف إقليم دكالة (المقصود الجنوب) ولها أسوار متينة عليها سبعة وثمانون برجاً ودائرتها ألف وثلاثمئة وسبعون مقياساً زراعياً وفي اتجاه الغرب يوجد قصر مرتفع قليلاً يطل على جرف صغير فيه صخور كثيرة....."²

وبالتالي يمكننا القول بأن المعلومات التي قدمها لنا مارمول أكثر دقة من المعلومات التي قدمها الوزان، لكنه لم يفصل كما فصل الوزان، ويقصد بالقصر "قصر البحر" البناية المتواجدة على البحر وتعود للفترة البرتغالية .

في انتظار ما تسفر عنه في المستقبل الأبحاث الأركيولوجية أو الوثائق التاريخية والتي تدعم أو تفند أي طرح كان، لابد من التنويه بأهمية هذه المصادر في كتابة تاريخ المدن في ظل غياب المادة المصدرية وغياب التاريخ المكتوب اعتباراً لثقافة المجتمع التي لا تخرج عن إطارها الشفاهي.

أما بخصوص التسمية التي تشوبها هي الأخرى شوائب التناقض الحاصل بين مختلف الروايات ولا يمكن المرور على مسألة التسمية دون الإشارة إلى مسألة تأثير اللغة الأمازيغية في الطوبونيم وفي أشكاله، إذ من الممكن أن يكون اللفظ البربري (أسفور) والذي يعني الضوء بضم الفاء قد حُرِف في الإستعمال إلى الكسر فنطق مكسوراً هو الاسم الحقيقي للمدينة.

¹ المدينة : أسفي

² كلربخال، (مارمول)، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجزء الثاني، دار النشر للمعرفة،

فلا يقدم لنا مثلاً "ياقوت الحموي" في القرن السابع الهجري في كتابه "معجم البلدان" أي تأصيل لغوي للكلمة أو اشتقاقها بل اكتفى بذكر: أسفي بفتحيتين وكسر الفاء، بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصى المغرب¹ ولا نجد في هذه الرواية ما يعطي أي إشارة إلى أصلها العربي أو الأمازيغي ولا عن سبب التسمية.

أما بالنسبة للإدريسي الذي أورد رواية مميزة عن التسمية خصها بمجموعة من الفتية الذين سماهم بالمغربين وقد قدر عددهم بالثمانية، وكانوا قد اتفقوا على ركوب البحر وأعدوا له عدته فإذا بالظروف الطبيعية تجري بعكس ما رغب به هؤلاء فتأهوا في البحر إلى أن استقروا بالمدينة على ساحل البحر ولما عرفوا المسافة الحقيقية التي تفصلهم عن بلدهم وهي مسيرة شهرين قال زعيمهم وأسفي فسمي المكان بأسفي².

لا نلمس في هذه الرواية أي ارتباط بالواقع، كما لا تستند هذه الرواية على أي محدد، حيث تظل أغلب المعطيات الواردة فيها موضع شك فلا ندري مصيرهم، إذا كانوا قد تأهوا في البحر أو أنهم استقروا في موضع معين، ولا ندري حقيقة نقطة انطلاقهم أمن مدينة أسفي إلى وجهة أخرى أم العكس؟.

كما نجد لدى أرمان أنطونا: أن لفظة "أسفا" قد استعملت من أجل تعيين المركز السكاني ذاته، بالإضافة إلى وجود إتجاه آخر يسعى إلى إثبات الأصل السامي لكلمة أسفي وذلك بالقول بأن مصدرها من الكلمة العبرية "أسيفا" والتي تعني (جمعية) وهي نفس اللفظة التي تنطق لدى اليهود الأسويين بـ "أسيفي"³.

¹ الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1979 الجزء الأول، ص

180

² الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ص 138

³ أنطونا (أرمان)، جهة عبدة، ترجمة علاء الركوك بمحمد بن الشيخ، الطبعة الأولى،

ص 29

كما نجد الكلمة وردت بصيغة مرسى (صافيم) çafim أو بالأحرى (سافيم) Safim¹، حيث يمكن القول ولوبشكل نسبي بوجود علاقة على الأقل بين المرسى الطبيعي الذي يعود الى فترات سابقة وبين التسمية .

وفيد البكري بأن اسم أسفي مشتق من الكلمة البربرية "أسيف" التي تعني مجرى الماء المؤقت وقد ثبت فعلا وجود وادي يخترق المدينة يعرف بوادي "الشعبة"².

وبما أن البكري رجع إلى الأصل الأمازيغي للكلمة، على اعتبار التمازج الحاصل بين العربية والأمازيغية في العديد من المناطق وبما انها تنتمي لجذر واحد بمعنى انها تضم تقريبا نفس الحروف ولها سند في الواقع، وفي الغالب ما يكون المنطلق في التسمية له جذور ترتبط بما هو طبيعي فمن المرجح أن تكون رواية البكري الأقرب إلى الصواب أو إلى الواقع.

ب تأسيس المدينة

تعتبر أسفي من أعرق المدن التاريخية نشأة، وقد اختلف الباحثون والمؤرخون في ذلك حيث نجد الحميري يخبرنا عن نشأتها بقوله: "نزع الشيطان بين بني حام وبني سام فوقعت بينهم مناوشات وحروب كانت الدائرة فيها لسام وبنيه، وكان آخر أمر حام أن هرب إلى ناحية مصر وتفرق بنوه ومضى على وجهه يؤم المغرب حتى إنتهى إلى السوس الأقصى"³ إلى موضع يعرف اليوم بأسفي⁴.

يتعد الحموي في حديثه عن تأسيس المدينة عن السياقات القريبة لبروزها ويرجع الأمر إلى قصة سام وحام الشيء الذي

¹ Brill (E.J) : Encyclopédie de l'islam; nouvelle edition; t.I; A-B ; Paris : 1960 ; p : 709

² البكري (أبي عبيد الله) المسك والممالك، طبعة دوسلان، 1957 ص 86
³ يظهر هنا عدم ضبط الحميري للمجال إذ جعل أسفي داخل مجال السوس الأقصى .
فأين تبدأ حدود هذا المجال و أين تنتهي ؟

⁴ الصنهاجي الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق : إحسان عباس، طبعة لبنان، 1984، ص 54

يغوص بنا أكثر في الجانب الأسطوري، والذي يستند في شق منه على الواقع بينما تبقى جل الأحداث من نسج المخيال الشعبي لجماعة معينة .

يرى ابن خلدون أنها مصمودية - بربرية التأسيس حيث يقول عنها :

"المصامدة أكثر القبائل البربرية وأوفرها من بطون برغواطة و عمارة جبل أهل درن ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب المتطاولة وكان المتقدم فيهم قبل الإسلام وصدره برغواطة من بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر المحيط من سلا، أزمو، أنفى، أسفي .."¹

يورد ابن خلدون في هذا الوصف، أثناء حديثه عن المصامدة ذكر مدينة أسفي على اعتبار أنهم كانوا يقطنون بها، أي أنهم ساكنتها الأصلية فهو يرجع إلى الفترة البرغواطية في حديثه، لكن لا يمكن الجزم بأنها مصمودية التأسيس، فحجم الأدلة المقدمة غير مقنع ومن الممكن أن يكون انتقالهم إليها تم تحت ظرفية معينة لا تمت للتأسيس بصلة .

أما مارمول فيورد كونها قرطاجية التأسيس حيث يقول: "يعتقد بعضهم أن هذه المدينة التي يسميها الأفارقة أسفي والبرتغاليون أسافي، إحدى المدن التي شيدها "حاتون" قائد القرطاجيين في ليبيا بأمر من مجلس الشيوخ وسميت من أجل ذلك : ليبي- فينيقية، ولذلك فبنها قد أسست قديما وبناها الأهلون على ما يقال ..."²

يستند ما قاله مارمول من جهة على سند حقيقي (رحلة حاتون)، وزيارته للمغرب كما يدري المصطلعون بالتاريخ القديم، لكن ما يثير الشك هو أنه نسب تشييد المدينة له، إذ من المعروف أن حاتون قد ادعى أنه أسس عددا من المدن بليبيا (المغرب) تصل إلى 300

¹ ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون، بيروت، 1992، الجزء السادس، ص

² كاربغال (مارمول)، إفريقيا، م. س. ص 71

مدينة، وقد شكك الباحثون في هذا الرقم الكبير إلا أنه لا ننكر أنه أسس مراكز لكن أغلبها بالشمال، ولم يكن من المعتاد أن يتجاوز الرحالة حدود شالة في زيارتهم للمغرب نظرا للظروف التي ترجع إلى تلك الفترة، كما إنه من الممكن أن يكون حانون قد وصل إلى جزيرة "موكادور" أي مرّ على المدينة.

➤ لا يمكن تأكيد رواية مارمول حول حانون و لا تنفيذها الا في ظل معطيات جديدة .

أما الحسن الوزان فيقول أنها إفريقية التأسيس: أسفي بناها الأفارقة الأقدمون على شاطئ البحر المحيط¹. إلا أن هذه الإشارة تبقى عامة، تنسب التأسيس للأفارقة لكننا لا ندري من هم بالتدقيق من جهة ولا ندري سنة التأسيس فكلمة الأقدمون فيها إحالة إلى القدم التاريخي للمدينة لكنها معطيات عامة تحتاج الى الكثير من التدقيق ومن الأبحاث الأركيولوجية .

وعلى الرغم من إشارة ابن عذاري المراكشي إلى وصول عقبة بن نافع الجنوب المغربي بقوله "وسار عقبة بن نافع حتى بلغ البحر المحيط" فعلى الرغم من ذلك تظل الإشارة ضعيفة وغير محددة للمكان²

كذلك الشأن بالنسبة لابن خلدون حيث يقول: "وسار عقبة وفتح وغنم وسبي وأتخن فيهم وانتهى إلى السوس ووقف على البحر المحيط وقتل راجعا..."³

أما الناصري فيورد الاسم بالتخصيص حيث يقول: "ثم عطف على ساحل البحر المحيط الغربي فانتهى إلى بلاد أسفي وأدخل قوائم فرسه في البحر ووقف ساعة ثم قال لأصحابه....."⁴

¹ الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، الرباط، 1980، الجزء الأول، ص 116

² ابن عذاري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1948، ص 27

³ ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ ابن خلدون، بيروت، 1992، الجزء الثالث،

ص 13

⁴ الناصري (أحمد)، الاستقصا، الدار البيضاء، 1954، الجزء الأول، ص 82

نخلص إلى القول وبعد كل ما تم تقديمه، أنه من المرجح وعلى الرغم من عدم كفاية الأدلة المقدمة أن تكون روايتي ابن عذاري وابن خلدون الأقرب إلى الصواب وإن كان من الصعب الاقتناع بأي من الروايات المقدمة في انتظار ظهور الأدلة التي من شأنها تحضض أو تأكيد كل ما قيل .

ت - التطور التاريخي

وردت مدينة أسفي لدى أبي عبيد الله البكري كأحدى أهم المراسي من الناحية التجارية حيث يقول عنها : "وتسير السفن من ساحل نول إلى وادي سوس ثلاثة أيام ثم منه إلى مرسى أمكدول وهي مرسى مشتىثم إلى مرسى كوز وهورباط يعمره الصالحون وهوساحل أغمات ثم إلى مرسى أسفي " ¹

فمرسى أسفي كان مشهورا في فترة زيارة البكري له، بل كان يعرف رواجاً تجارياً مهما جعله يصنف في مصاف المراسي التي تتم فيها المبادلات التجارية الخارجية .

وهذا ما يؤكد حتى الإدريسي فقد قال عنها في نزهة المشتاق: " ومرسى أسفي كان فيما سلف آخر مرسى تصل إليه المراكب، أما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة مجاز، أسفي عليها عمارات وبشر كثير من البربر والمراكب تحمل منها أوساقها وقت السفر " ²

وقد اتفق كل من الإدريسي والبكري في كون أسفي كانت آخر مرسى، إلا أن الإدريسي أضاف أنه أصبحت هناك مراسي أخرى بعد في قوله " أما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة مجاز."

ويشير إلى ساكنتها وهم من البربر وإلى حجم المبادلات التي تتم بها وإلى مكانتها فتوفر عدد كبير من العمارات دليل على أنها مدينة كبيرة من جهة ذات علاقات على مستوى الداخل والخارج من جهة أخرى

¹ البكري (أبو عبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، م . ب، ص 96

² الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في إختراق الافاق، م . ب، ص 92

ويضيف الناصري عن تاريخ مدينة أسفي في الفترة الإدريسية من تاريخ المغرب حيث يشير إلى أنه: " وبعد وفاة المولى إدريس الثاني تولى إليه محمد القاسم وقسم البلاد على إخوته، أصبحت منطقة أغمات وبلاد نفيس وبلاد المصامدة بما فيها منطقة أسفي وبلاد لمطا والسوس الأقصى تحت نفوذ الأمير عبد الله بن إدريس¹

هنا يورد الناصري هذه الإشارة السياسية وإلى كون المدينة كانت تحت النفوذ الإدريسي، كما توجد إشارة أخرى إلى أنها كانت تابعة للمصامدة كما أشار لذلك ابن خلدون فيما قبل .

وبعد ضعف الدولة الإدريسية ظهرت الدولة المرابطية بالمنطقة وكان ظهور البرغواطيين أيضا وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بقوله : كانت مواطن برغواطية تمتد بين المصامدة في بسائط تامسنا وريف البحر من سلا وأزمور، أنفى، أسفي .."²

وقد خضعت المدينة للنفوذ البرغواطي في إحدى فتراتها بسبب الاصطدام الذي كان بين البرغواطيين وبين الدولة المرابطية ولم يتم القضاء على هذا المد البرغواطي إلا في عهد الدولة الموحدية إلا أنه عرف تراجعاً في مناطق نفوذه فلم يعد بعد ذلك يمتد على المنطقة .

وتزامنا مع قوة الدولة المرابطية تراجع دور مرسى كوز³ لصالح ميناء أسفي وهذا ما أشار إليه الحميري بقوله: " ان مرسى أسفي في أقصى المغرب وهو آخر مرسى تبلغه المراكب من عند الأندلس إلى ناحية القبلة وليس بعده للمراكب مذهب ."⁴

كما برزت الدولة الموحدية في منتصف القرن السادس الهجري ودخلت أسفي في طاعتها سنة 540 هـ، وقد سورت المدينة كفي هذه الفترة واستمرت في تأدية نفس الدور وكانت فترة "يعقوب المنصور" أزهى فترات الدولة

¹ نفسه، الجزء السادس، ص 172

² ابن خلدون (عبد الرحمن)، تاريخ بن خلدون، م. ب.، الجزء السادس، ص 245

³ من المراسي الصغيرة التي اشتهرت بنشاطها والتي كانت تصدر منها مدينة مراكش بضائعها وسلعها قبل ظهور مرسى أسفي

⁴ الحميري (محمد)، الرروض المعطار في خبر الأقطار، مكتبة لبنان، 1984، ص

⁵ وفي ذلك إشارة إلى كون المدينة لم تكن مسورة في الفترة الموحدية

كما يظهر في قول الناصري: "عرفت الدولة الموحدية أيام المنصور أيام دعة وأمن ورخاء ورفاهية وحصن البلاد وبنى العارستات.." ¹

يظهر من خلال ما توفر من النذر اليسير حول تاريخ مدينة أسفي أن الفترة الموحدية كانت فترة متميزة بالقيام بتسوير المدينة وتأسيس العديد من المنشآت خاصة مع الازدهار الذي عرفه العهد الموحي، حيث حظيت المدينة باهتمام وعناية خاصين ميزت هذه الفترة .

في نهاية القرن السادس الهجري دخلت الدولة الموحدية طور الانهيار بعد وفاة يعقوب المنصور فلدى ذلك إلى ظهور الحركات الصوفية بمختلف المناطق حيث ظهرت بأسفي حركة أبي محمد صالح وإمتد زمانيا من نهاية القرن السادس إلى نهاية القرن الثامن ² وقد تملك متصوفة المدينة زمام الأمور، وكانت لهم فاعلية داخل المجتمع وفي عدة قضايا على اختلافها

أما عن الفترة المرينية ³ فلين الخطيب يخبرنا عن أسفي وعن ما عرفته من إهتمام حيث زارها سنة 761 هـ / 1360 م..... ⁴ فقد شيدت بها أيضا عدة مؤسسات علمية وطبية (مارستات) ودينية .

إلا أن غياب المعطيات المتعلقة بتاريخ هذه المدينة لعدة أسباب ثم التطرق إليها فيما قبل يجعل من الصعب الحصول على سلسلة منسجمة من الأحداث التي من شأنها أن توضح التطور التاريخي للمدينة بشكل عام .

¹ الناصري، الإستقصا، الجزء الثاني، م. س.، ص 198

² الكائوني، أسفي وما إليه قيما وحديثا، ص 98

³ سنكتفي بالتوقف عند الفترة المرينية نظرا لخصوصية البحث أي لعدم حاجتنا للحديث عن الفترات اللاحقة، فستتم الإشارة إليها ضمينا في باقي المحاور

⁴ ابن الخطيب (لسان الدين)، نفاضة الجراب في غلالة الإغتراب، المغرب، 1985،

2- الوضع السياسي بالمدينة خلال القرنين 15-16م

أ- الأوضاع العامة

عرفت مدينة أسفي قبل سقوطها في يد البرتغاليين رواجاً تجارياً، لكن وكما سبق الذكر أدت الاضطرابات السياسية إلى اندلاع حروب أهلية بين الزعامات المحلية، مما جعلها فريسة سهلة للبرتغاليين¹ لما إستجدوا بها².

ولم تكن مدينة أسفي هي المدينة الوحيدة التي رضخت للاحتلال البرتغالي، فقد تضافرت عدة عوامل جعلت المغرب في عهد الدولة الوطاسية، يصل إلى مستوى من الضعف جعلها محط أطماع الإيبيريين (البرتغال)³.

وبعدما تم الإستيلاء على ثغور المغرب الشمالية من قبل المسيحيين، اتجه مد آخر هذه المرة نحو الجنوب، حيث ظهرت دوافع ومغريات أخرى (قرب الميناء من العاصمة مراكش ومن السهل الخصب : دكالة عبدة ومن وادي ام الربيع الذي كانت يوفر سمك الشابل). جعلت هذه القوة تنتهج سياسة القرب⁴ من الموانئ الجنوبية، كأسفي وماسة هذا القرب الذي سيتحول إلى احتلال مباشر بعد ذلك .

تمثلت أهم مساعي "التقرب" في الرغبة في الإستفادة من التجارة معها، ومع باقي المدن الداخلية. وكذا في الحصول على حصاة وافرة من الصيد والفمخ.

¹ نتحدث هنا عن القواد المحليين وبفعل الصراع الذي كان بينهم فقد تدخل البرتغاليون بينهم بمنحهم امتيازات عن غيرهم مقابل تنازلات.

² مارمول كاربخال، إفريقيا، م. س. ص 71-72.

³ باكوري (محمد) اليهود والمخزن في عهد الدولة السعدية، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، 2004، ص. 68.

⁴ سياسة نهجتها الدولة البرتغالية قصد توطيد تواجدتها بالمعالم المغربية بالجنوب وذلك بالدخول في علاقات تجارية مع العديد من الأطراف.

فقد تغيرت العلاقات ما بين البرتغال والمغرب قبل وفاة ألفونسو الخامس سنة 1481. كما ورد في رسالة الملك جون الثاني (Jean II) إلى قواد وساكنة أسفي بتاريخ 16 أكتوبر 1488.¹

وهذا ما يخبرنا الناصري به من خلال الحديث عن إستيلاء² البرتغاليين على أسفي إذ يقول: "كان البرتغال قد تشوفوا للإستيلاء على أسفي... فزحفوا إليها وجرى بينهم وبين أهلها قتال شديد هلك فيه عدد كبير من البرتغال ... ثم طاولوها بالحصار حتى قل القوت عند أهل أسفي، وأشرفوا على الهلاك فحينئذ شارطوا البرتغال وأسلموها إليهم على الأمان"³.

وفي هذه الرواية إشارات إلى الأوضاع التي كان يعيشها المغرب حيث تركت العديد من المدن لتواجه مصيرها وهذا ما حصل لمدينة أسفي إذ تعرضت للحصار إلى أن استسلم أهلها بمعنى كانت المواجهة ثنائية بسبب الاضطرابات .

ودخلت مدينة أسفي بمقتضى معاهدة أمضتها مع البرتغال في حمايتها قبل وفاة ألفونسو الخامس سنة 1481 وبعد مرور فترة طويلة على هذه المعاهدة عاد القائد أحمد بن علي⁴ لطلب العمل بها (بالمدينة).⁵ فقد كن قائدا بها من قبل .

تخلى البرتغاليون عن سياسة الاحتلال المباشر لتأكد لهم أنها لن تؤدي إلا إلى مضاعفة مشاكلهم المالية، وإلى إلحاق الضرر بمصالحهم التجارية بتلك الموانئ التي ثم تحويلها إلى مجرد ثكنات عسكرية كما تم في الشمال لا يستفاد منها، هكذا فطن البرتغاليون إلى تبني سياسة تهدف إلى التحكم غير المباشر في أهم الموانئ الجنوبية .

¹ S.I.H.M. Archive portugais, tome I, P25

² تجدر الإشارة إلى أن أي دولة تريد احتلال أخرى لا تعلن عن ذلك صراحة وباتقالي تلعب السياسة دور القناع الذي تخفي وراءه النوايا الحقيقية للدولة المستعمرة تحت عدة درائع وهذه هي الحالة بالنسبة للبرتغال فلم تكن لتتدخل بشكل مباشر في الصراع مع الساكنة.

³ الناصري (أحمد)، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م، ص، ص. 141.

⁴ أحد قواد المدينة.

⁵ S.I.H.M;op.cit ; t ; I ; p :693

نهج البرتغاليون للوصول إلى غايتهم خطة تروم الإعتماد على الهياكل السياسية بالأساس كركيزة وذلك بتقديم مجموعة من الإغراءات (امتيازات مالية - وعود بتحقيق مصالح شخصية ...)، وبذلك اعترفت أسفي بسلطة التاج البرتغالي عليها قبل 28 غشت 1481¹، في حين كان الاحتلال الفعلي للمدينة سنة 1508، إلى جانب مراكز أخرى²

وقد زامن الغزو الإيبيري للثغور المغربية، وصول "الجالية" الأندلسية بمختلف مكوناتها (مسلمون مطرودون، يهود ..) : فانضموا إلى سلطة الوطاسيين التي سمحت لهم بالاستقرار ودعمتهم. وحاربوا معها السعديين واستخدموا لمواجهة الإيبيريين، فقد كلف السلطان الوطاسي عامله على تادلة "أحمد العطار" بالتفاوض مع برتغالي أسفي.³ نظرا للاعتبارات المعروفة (التمكن من اللغة ...)

وعلى الرغم من الاضطراب الذي كان تعيشه الدولة تمكنت أسرة بني فرحون من إستغلال الأوضاع وبسط سيطرتها داخل المدينة، وتعتبر هذه الأسرة من الاسر الغنية، وقد عرفت بعض الصراعات الداخلية ولكن تولى في النهاية تكبير شؤون المدينة أحد أفرادها: أحمد بن علي الذي يدعى: "حمادوش"، في 16 من أكتوبر 1488 حيث قلده الملك البرتغالي جون الثاني قيادة أسفي .

وفي 1498 قررت الحكومة البرتغالية أن تعوض القائد أحمد الذي طعن في السن، بإبن أخيه عبد الرحمان فقام نزاع بينهما وتصالحا وخطب أحمد في الجمهور يطلب منهم طاعته حسب رواية الوزان⁴.

أما رواية مارمول فتتحدث فيها عن قتل عبد الرحمان لـ "حمادوش" وإستمالته الناس إلى أن أصبح عليهم أميرا سنة

¹ بوشرب (أحمد)، دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي، ص. 181.

² S.J. H.M. Archive portugais ,tome I, P25

³ ibid III: p: 382

⁴ الوزان (الحمن)، وصف إفريقيا، ص. 148 .

1500.¹ والملاحظ أن الفرق في الروايتين طال حتى السنوات فكل من الوزان ومارمول يتحدثان عن نفس الحدث بفرق سنتين .

ومن بين الشخصيات القيادية التي كانت تصبو إلى الحكم في المدينة يحيى الزيات وقد أدى طرده من أسفي إلى رغبته في أن تسير الأمور لصالح البرتغاليين، وذلك لأنه ربط وصوله إلى السلطة بالتعاون معهم، فقد كان يسعى إلى الحصول على عفوهم سنة 1502. لم يكتف بذلك فقط بل قام بحشد موالين للبرتغال وذلك بالتحرك إلى المدينة الغربية التي كانت في صراع مع قائد أسفي، وتقديم النصح لأعيانها بالدخول تحت حماية الملك البرتغالي،² إلا أنه لم يفلح في الحصول على مبنغاه .

وكانت البرتغال في هذه الأونة تهيئ للاحتلال الفعلي حيث ظهر أسطول قائم من لشبونة كان الملك قد جهزه بجميع أنواع الأسلحة، وقطع المدفعية علاوة على خمسة آلاف من الجنود المشاة ومئتين من الفرسان. وصل قسم أمام أسفي يوم 24 ديسمبر 1507، ووصلت سفن أخرى أول يناير 1508، و"ربما" بقي الأسطول أمام أسفي حوالي ثلاثة أشهر لذلك تملك المغاربة الرعب وتركوا المدينة ملتجئين إلى جبال بني ماکر.

وعلى الرغم من إحتلال المدينة، فشل البرتغاليون في الحصول على عملاء أوفياء بتلك المراسي مع العلم أنها اعترفت بالسلطة البرتغالية.³

في حين تدحض رسالة مؤرخة ب 2 يوليو 1509 بأسفي مرسله من ساكنة المدينة إلى إمانويل الأول هذه المعلومات إذ يظهر العكس حيث يوجد إحساس كبير بالولاء من لدن الطرف المرسل (لا ندرى حقيقة الوضع هل الأمر يتعلق بالولاء أوبتسبيق

¹ مارمول (كريفخال)، 71-72، الحسن الوزان وصف إفريقيا، م. ب.، ص: 148

² S.I.H.M. Archive portugais .tome II; p: 278

³ RICARD (k): le commerce de berbérie et l'organisation économique de l'empire portugais: Etude sur l'histoire des portugais au Maroc : Coimbra : 1954 ; p 98

جوشرب (أحمد)، دراسات ووثائق عن الغزو البرتغالي، م. ب.، ص. 181 .

المصلحة الشخصية، البحث عن الاغتناء والإغواءات أو استسلاما للوضع الجديد وللظرفية وغير ذلك) نجد في مضمونها: "ونحن ما كرهنا عبد الرحمان إلا في حق الذي عصاك ولم يدخل تحت طاعتك، ولا رحنا حتى قتلناه وقلنا خرجنا من العذاب ودخلنا الجنة".....¹

ب- الصراعات الداخلية:

كانت المدينة وعلى مدار مسارها التاريخي تعيش رتابة - ان صح التعبير - كما هو معروف فلا توجد كتابات تاريخية توحى بحيوية تاريخ هذا المجال وبالنشطة التي كانت تمارس في هذه المدينة أو بالأحرى وقد أدت الأوضاع الجديدة بالمدينة، إلى خلق نزاعات بين عدد من الأطراف التي كانت ذات مكانة معينة فبعد أن حكم "عبد الرحمان المنحدر" من أسرة بني فرحون مدة طويلة بخبرنا مارمول أنه قتل بشكل مفاجئ حيث يقول: "بعد أن حكم طويلا قتل بدوره في وقت كان فيه أقل تفكيراً في الموت... وكان وراء ذلك علي بن وثمان ويحي أو تعفوفت بعد أن إتفقا على إزالتة ودبروا له مكيدة."

تجدر الإشارة إلى أن القائد عبد الرحمان هو الذي كان ينوي القضاء على علي بن وثمان ويعزى الأمر إلى قضية تتعلق بكرهه- حسب الكتابات- على علاقة بابنته وقد وردت لدى الوزان بالتفصيل وعوض أن يقتل عبد الرحمان بن علي الذي تنبه لذلك علياً ابن وثمان ثم العكس.²

وقد أدى قتله إلى قيام جلبة في المدينة إلا أن الحاكمين الجديدين تحكما في الموقف، فبعد قتله "صاحوا في المدينة بأنهم قتلوا الطاغية، الذي أراد أن يفتك بهم ليتمتع بطغيانه أكثر، فوافق الشعب على عملهم وأصبحت حاكمي المدينة بصفتهم القائمين بتحريرها".³ وتبين هذه الأحداث الهالة التي اكتسبها الدخول

¹ S.J.H.M. Archive portugais tome I ; pp 180 -188

² الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، م. س.، ص. 148 - 149 في الهامش.

³ كاربيل (مارمول)، م. س.، ص. 72-73.

البرتغالي إلى المدينة وما احدث من خلخلة وما أبين عنه من "بركماتية" في التعامل مع الفئة الحاكمة في مدينة أسفي في هاته الفترة

وقد حاول في إطار ربط العلاقات والحرص على الاستفادة علي بن وثمان بالذهاب لدى "دييغودا أزامبوجا" لإخباره بما جرى، حيث يخبر مارمول أنه أتاه بعد يومين وطلب منه باسم يحي وإسمه أي علي أن يأتي مع بعض أصحابه لنصرتهم على أهل الميت أي عبد الرحمان، إذ لا بد لهم من الحماية خاصة في ظل الأوضاع المتوترة التي دخلت فيها المدينة وخوفا على نفسيهما من الخطر، واعدن إياه أن يكونا تابعين للملك فاقنتع الحاكم بهذه المبررات وذهب مع إثني عشر برتغاليا إلى أسفي .

ولما خشي دا أزامبوجا غدر المغاربة، بعدما رأى أن الأمور لا تسير حسب مشيئته، عاد مع علي وثلاثة من الوجهاء تاركا يحي عاملا على المدينة، بينما قدم علي والوجهاء الثلاثة على أنهم أتباع للملك.

ومن جملة ما وقع عليه الإتفاق بينهم أن عليا ومن معه سيهبون للبرتغاليين دار مطلة على البحر (قصر البحر حاليا) لحساب التجار المسيحيين وبرجا لأمنهم.

والذي يتضح من خلال هذا الفعل، هو الرغبة في الاستيلاء على النقاط الاستراتيجية والحساسة في المدينة، خاصة وأن البحر هو العنصر الفاعل في مجريات كل هذه الاحداث، فلم يكن اعتباطا اختيار المدينة إلا لتوفرها على العناصر الكفيلة بضمان اكبر قدر ممكن من تحقيق المصالح الخاصة والعامة للتواجد البرتغالي بالمغرب، بشكل عام وذلك من خلال العبور عبر المدينة، ويعتبر احتلالهم لهذه الدار المطلة على البحر بمثابة إجراء فعال تمكن من خلاله البرتغاليون من سد المنافذ على المغاربة ومراقبتها والتحكم في كل الأنشطة والتحركات .

هذا وتجدر الإشارة إلى أن إنطلاق كارسيا دي ميلو - كان قاندا لسفن الكرافيل البحري في المضيق - قبل وصول دا أزامبوجا،

بأمر من ملك البرتغال فوجد السكان مسلحين ولما وصل دا أزمبوجا سنة 1507 مع علي بن وثمان الراغب في تنفيذ وعده الرامي إلى إيجاد أتباع آخرين للعرش البرتغالي، وجد الرفض جوابه بعدما صرفه الفقهاء.¹

أدت هذه المستجدات التي لم ترق البرتغاليين إلى عملهم على بث الريبة بين علي ويحيى، وتم ذلك على مراحل كما هو معروف ووقع انه في سنة 1508 أرسل الملك "كونزالي مينديس دي سكوط" بأربع كرافيلات ليستولي على المدينة، لتكون البوابة التي سيلجون منها إلى مملكة مراکش .

حيث وصل كونزالي مع مائتين من الرماة وعدد من المتطوعين إلى أسفي، فوجد القائمين على الأوضاع خائفين من مناورات المغاربة، وإتفق معهم (اي كونزالي) على أنهم سيصرحون ليحيى وعلي بأنه لا بد من الإتفاق، تلافيا للتفرقة التي من شأنها تشتيت البرتغاليين بين الجهات ولتهنئة الأوضاع وذلك عبر عدة وسائل وسيتم ذلك بتقلد أحدهما حكم المدينة، تحت سلطة البرتغال، فكان كل منهما يؤثر صاحبه مرة لكن الأمر إنتهى بتولية يحيى نظرا لعدة اعتبارات مرتبطة بعوامل داخلية منها مكانته داخل المجتمع قبل الدخول البرتغالي وأخرى خارجية مرتبطة بالأساس بمصلحة التاج البرتغالي بالدرجة الاولى والتي كان يخدمها تربح يحيى على المنصب.²

أوعز ديبغودا أزامبوجا بعد ذلك مباشرة - اي بعد التولية- إلى علي بضرورة تصفية يحيى وسيتم ذلك بقتله في داره واعدا إياه أن يبقى عاملا بعده . بينما أمر يحيى أن يفر في الليل ليلجأ إلى منزل للمسيحيين الذين كان يجهل كونهم شركاؤه في المؤامرة .

وهذا ما يؤكد الطرح السابق والمتعلق بمصلحة الاستعمار البرتغالي من جهة، ومن جهة أخرى استغلال الأوضاع وضرب القوى المحلية بعضها ببعض .

¹ نفسه، ص. 73-74 .

² مرمول، ص. 73-74 .

إلا أن الوزن يخالف مارمول الرأي في كون دا أزامبوجا إنحاز ليحي، فهو يرى أنه إنحاز لعلي وأرسل يحي إلى لشبونة سنة 1507 والمهم هنا ليس النقاش حول من انحاز له هذا القائد البرتغالي بقدر ما هو الحديث حول الطرق والوسائل التي تم بها الاستعمار وسواء انحاز دا أزامبوجا إلى يحي أو إلى علي فهم في نظر البرتغاليين في نفس المرتبة ومن نفس البيئة لا يتمايزون إلا بقربهم أو بعدهم عن العرش البرتغالي وعن ممثليه في المستعمرة .

ويضيف الوزن أنه عندما رجع يحي من البرتغال ذهب علي بعد إحتلال أسفي ليقيم مع أهله على ضفاف وادي أم الربيع لكنه سجن في ماي 1514 من قبل الناصر أخوملك فاس¹ . وهذا راجع لعلاقة علي بالبرتغال .

ويعزى الاختلاف بين الروايتين إلى أن الحسن الوزن قد إستقى المعلومات مباشرة من علي وبالتالي فرواية الأحداث اختلفت بين هاذين المصدرين دون أن تتباين مع ما للاختلاف من أسباب أحيانا تكون موضوعية وأخرى ذاتية تضيع معها الحقيقة نسبيا أو بشكل كلي وهذا المعطى دائم الحضور في الكتابات التاريخية وهو ما يؤدي أحيانا إلى الخروج بنتائج لا تلامس في الواقع الحقيقة التاريخية بشكل مباشر .

وتظهر كل هذه الأحداث بأن يحي كان يستحوذ على العلاقة مع البرتغاليين وخاصة بعد رحيل علي بن وثمان منافسه فقد ذهب يحي إلى "نبيغودي ميراندا"، فخصص له إستقبالا حسنا وأواه ثمانية أيام ولم يكن ليتم ذلك إلا بتزكية من الملك البرتغالي² .

قام قائد الأسطول بإرسال يحي إلى ملك البرتغال، الذي جعل له إيرادا حسنا وأعطاه عشرين خادما، بعد ذلك أعاده إلى إفريقيا (المغرب) ليحكم البادية التابعة لأسفي لان القلاقل تصدر من البادية بالأساس ولا يعني الحكم أنه يتحكم بزمam الأمور فكل ذلك إسكات لقائد سيخلف حرمانه إزعاجا للتواجد البرتغالي على أرض المدينة

¹ الحسن الوزن، وصف إفريقيا ص. 151، مارمول كاريخال، إفريقيا، ص. 74 .

² مارمول، ص. 74 .

ما من شأنه عرقلة الطريق أمام الاستغلال المباشر، كما وأن القائد البرتغالي لا يعرف عادات هذا الشعب ولا الطريقة التي يجب أن يساس بها¹

وقد مكث يحي بالبرتغال مدة 22 شهرا ابتداء من آخر غشت 1514² ولم يقرر الملك إرجاعه إلى أسفي إلا بعد موت القائد أتايد كما أنه وصل إلى هذه المدينة يوم 21 يوليوز 1516، - ولم يحصل يحي على كل هذه الامتيازات عبثا أو بسهولة إذ لا تمنح كل هذه الأعطيات إن صح التعبير إلا لمن عمل عليها واخلص في العمل كما توضح العديد من مجريات الأحداث التاريخية في فترات أخرى عن الاستعمار وعن آلياته والعلاقات في ظله - برتبة قائد على كل دكالة مع عدد من الامتيازات³

وقد منحه الملك البرتغالي لقب "قائد البادية"، كونه كان عارفا بالبلاد وقد أدى منذ ذلك الحين خدمات شتى رفقة الأعراب والبربر فلم يهزم الشرفاء وحدهم بل تغلب حتى على جنود مراكش وفاس (استخدام القوى المحلية لمواجهة السلطة الحاكمة عوض المواجهة المباشرة).

كما قام يحي أوتغوفت بدور جد مهم في نشر النفوذ البرتغالي في المنطقة وذلك لتحكمه في "عيدة" و"الغربية" ويظهر ذلك بشكل جلي في سنة 1517، حيث أخبر الملك البرتغالي أنه إذا ما رجع الملك الوطاسي إلى عاصمته فاس سيعمل على إرجاع الأمور إلى نصابها وذلك بقوله: "تتحزم مع هاذ العرب حتى نردهم لسفي بزر منهم"⁴.

وإن كانت حالة يحي أوتغوفت حالة بارزة في التعامل مع المحتل البرتغالي إلا أن هناك حالات أخرى وإن تفاوتت درجة القرب أو البعد من الاستعمار أنت خدمات جليلة للدولة البرتغالية في

¹ وصف الوزان للشعب بالجاهل. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، م.س، ص. 150.

² في مارس من نفس السنة انتهى الحسن الوزان يحي أوتغوفت وهو جمع الضرائب فنصحته بالإبتعاد عن البربر. الحسن الوزان، إفريقيا، ص. 60.

³ S. I.H.M. PORT. T. II. P : 6-17

⁴ ibid. T. II. P : 155

المغرب ويتضح ذلك من خلال ما تضمنته رسالة مؤرخة بـ 11 ماي 1517 مبعوثة من إيمانويل الأول إلى سفيره في روما "ميكائيل دا سيلفا" وجود قواد مغاربة في خدمة الملك البرتغالي، يحاربون المغاربة غير الخاضعين، مثل حالة أسفي بالنسبة ليحي أوتغوفت قائد الملك على بلاد دكالة .

كما تضمنت الرسالة طلبا بحصول يحي على الإمدادات حيث يقول: "منذ شهر يناير هزم يحي ملك مراکش مرتين - تشييدا بمنجزاته -، وينبغي إعطاء هذا المغربي الرماح والأسلحة الأخرى الضرورية للحرب التي يقوم بها لصالح البرتغال لذلك يطلب الملك البرتغالي من البابا أن يرخص بإعطاءه الأسلحة، وأنه لن يستعمل هذا الترخيص إلا لخدمة الله".¹

وتوضح هذه الرسالة من جهة طبيعة العلاقة بين هذه الشخصية والعرش البرتغالي وطبيعة المكانة التي كان يحوزها في المجال إذا كانت تصرف له الأسلحة والأموال والأعطيات ومن جهة أخرى أنواع التحديات التي كانت تواجه السلطة الحاكمة فعوض مواجهة الاحتلال بشكل مباشر تجد الدولة نفسها في مواجهة عنوداخلي متمرس عارف بأحوال المجتمع والمجال .

وقد أثرت المصالح بشكل ملاحظ على الفاعلين في الحقل السياسي في المجال فعزم "دا أزامبوجا" على قطع العلاقات جهرا مع علي، فاستغرب علي تكبر البرتغاليين كونهم لازالوا خاضعين لسلطته ولا يستطيعون العيش بدونه فهو الذي كان يرسل لهم الموز يوميا فأجابه دا أزامبوجا أنهم سيتغدون من دم المغاربة ومن لحمهم وهذه العبارة لوحدها تبين من جهة الطريقة التي كان ينظر بها هذا المحتل للمغاربة والتعالي الذي عومل به علي لما دخل يحي أوتغوفت على الخط.²

كما أدت هذه الاضطرابات التي حصلت بين علي ودا أزامبوجا إلى بحث الأخير عن فرصة للنزاع فقاموا باستفزاز جزار

¹ S.I.H.M.PORT. T.I:P: 85

² مازمول، م.س، ص. 74 - 75.

مغربي، هذا الأخير صفع غلاما فقام هذا الأخير بقتله وسط الساحة، لما رأى المغاربة ذلك بانروا بالهجوم ووقعت الحرب بين الطرفين. ويذكر الحسن الوزان هذه القصة بالتفصيل وموت مائة رجل من المغاربة في ذلك الهجوم إلا أن إستماتة المغاربة جعلتهم يحاصرون الدار أياما عديدة أدى ذلك في نهاية المطاف بالمغاربة إلى طلب السلم من دا أزامبوجا¹.

وقد قام المغاربة بعد ذلك بتسليم المفاتيح الخاصة بقصر البحر والأبواب إلى القائد وصاروا أتباعا للملك البرتغالي. بينما لجأ علي إلى مدينة تاركة (على بعد عشرة فراسخ من أزموور) مع أهله وأقام بها وهكذا إستولى ملك البرتغال بشكل تام على مدينة أسفي².

ولما إستولى البرتغاليون على أسفي أرسل إليها "نونيو فرنانديس دي أتايد" كحاكم مع جنوده من الفرسان والمشاة وكمية من السلاح والمنفعة والخبرة الحربية فأخذ في الحين يشن الغارات في جميع الجهات وحصل على عدد من الأسرى والغنائم

بعد الحصار ونظرا للتفوق الحاصل بالنسبة للبرتغاليين على المغاربة، أذعن عدد من الأعراب والبربر للملك البرتغالي بينما فتك بالذين امتنعوا عن ذلك³.

كان رد فعل المغاربة بعدما استنكفوا عن أداء الخراج للمسيحيين محاصرة المدينة بقيادة أكابر أعراب أزموور والغربية وكافة البربر المقيمين بتلك المناطق فلم يستسغ كل ساكنة المنطقة فكرة الاحتلال والاستغلال ما أدى بهم إلى الثورة على الأوضاع. فوصل عددهم خمسة آلاف فارس ومائة ألف رجل فطوق البربر مع قسم عرب أولاد سبيطة سنة 1510 المدينة ولا ندري حقيقة أن كانت بدافع شخصي أو بايعاز من السلطة الحاكمة في مراکش أو غير ذلك نظرا لتعدد الأوضاع ولكون المصادر لا تفصح عن ذلك

¹ مارمول، إفريقيا، م، ص، 75، الوزان (الحسن) 150-151، لا يذكر الوزان مسألة خلاف علي مع دا أزامبوجا بل يرجع الحرب إلى توفر البرتغاليين على الأسلحة الكافية للهجوم والدفاع ومناسبة الموقف لذلك

² مارمول كارتغال، إفريقيا، م، ص، 75.

³ ديبغري طوبريس، تاريخ الشرفاء، ص، 17.

وشرعوا في تحطيم السور، فقام الحاكم بإطلاع الملك البرتغالي بالأمر عن طريق التجار المسيحيين.¹

واستحضارا لأهداف الاستعمار وتمظهراته الاقتصادية والسياسية والثقافية في نفس السياق سيظهر الدور الفعال الذي لعبه التجار في القضايا السياسية في أكثر من موقف بعد ذلك، فالقضايا السياسية ارتبطت بشكل كبير بالقضايا التجارية أو الاقتصادية عموما كما جرت العادة في مجريات الأحداث التاريخية.

وتوضح رسالة من ساكنة أسفي إلى إمانويل الأول سنة 1509 في 2 من يوليوز، التبعية المطلقة- لأهل أسفي- للعرش البرتغالي وللدولة ككل :

" الحمد لله وحده .. ضيفنا ومولانا السلطان ضون منوال حفظه الله خدامك بل عبيدك الساكنين تحت علامك وطاعة الله وطاعتك في بلدتك بلدة أسفي هم يسلمون عليك ويقبلون يدك والأرض تحت قدميك.....نحن قانرون على أن ندخل السلطان مراکش ومولاي زيان من أزمور وكان بأسفي رجالا كانوا أهلا للشياخة ونحن يا مولانا إخترناك ورضيناك من دون هؤلاء....." ².

كما يخبرونه بأنهم قبلوا دا أزامبوجا (الدا الزنبوج) حبا في الملك وطاعة له.

وإن كانت هذه الرسالة تطرح من الإشكالات ما تطرحه نظرا لحمولتها، إلا أنها تعطي انطبعا عن طبيعة العلاقات السائدة آنذاك وحتى عن طبيعة الساكنة وإن لم يكن القصد التعميم أو الخروج بقواعد، ولكنها تظهر إلى حد معين الرغبة الكبيرة في الاستفادة أكبر قدر ممكن في إطار "العمالة" من مدخل ديني لتحقيق مصالح أو مراكمة ثروة والحصول على السلطة الرمزية فلن يستفيد هؤلاء القواد أكثر مما ستمفيده الدولة البرتغالية على أرض المغرب .

¹ مارمول، م. ب.، ص. 76

² S .I.H.M.PORT. T . I;P : 181-182-183-184-185

وعلى الرغم من تورط يحيى وعلي في مقتل عبد الرحمان إلا
السakنة التي بعثت للملك تصف علي بالغدار لأنه غدر عبد الرحمان
ويحيى بقولهم :

"ثم بعد ذلك ادخل علينا الغدار علي بن وثمان وقبيلة السراق
بني ماجر الذين أكلوا البلد وأفسدوهعلي بن وثمان اغدر عبد
الرحمان واغدر صاحبه يحيى واغدرك أنت يا مولانا".¹

والجلي هو عدم معرفة هذه السakنة بحقيقة الأمور واستفادة
البرتغاليين من ملائمة الأوضاع لهم فلم يعرفوا أن المستعمر كان
يضرب هؤلاء الزعماء بعضهم ببعض وأنه لم يعد عبد الرحمان
صالحا لخدمته وأنه لن يكون في نفس مستوى الخدمة التي سيقدمها
يحيى لهم وبالتالي وجب التخلص منه والغريب هو نظرة السakنة لهذا
المستعمر باعتباره المنقذ والمصلح أدت إلى تكريس الأوضاع أكثر
من تعجيلها بالقضاء على الاحتلال .

في سنة 1510 ونظرا للأوضاع المضطربة أرسل JOAO
LOPES "جواولوبيز " إلى إمانويل الأول يخبره أن الرسائل
التي يرسلها له لم تصله لأنه يتم إحتجاز أي شيء يمر بين أسفي
وأزمور.²

وفي نفس السنة نجد رسالة أخرى مؤرخة ب5 ديسمبر، من
"نونيو فرنانديس دي أتايد" إلى الملك إمانويل يخبره فيها بحتمة
محاصرة المدينة فقد إقتربت فرقة من مائة قاذفة من المدينة ووقع
50 فارسا في كمين ولم يتم إنقاذهم إلا بوصول "الفاروا دي أتايد".

لقد أبانت الرسائل عن تباين في المواقف في صفوف المغاربة
وهذه مسألة طبيعية ما بين الرغبة في الاندماج في الاستعمار نظرا
لعدة عوامل وما بين الرفض والمقاومة مما من شأنه أن يخلق
ازدواجية - وهمية - .

¹ S .I.H.M.PORT. T . I;P : 186-187-188

² Ibid . T . I;P : 230

وفي 27 نونبر قام أولاد عمران وأولاد سبيطة والشيظمة بالزحف نحو أسفي وقد مكن وصول (JOAO LOPES DE MEQUA) جوالوبز دي ميكا، من تموين أسفي بالبارود والرصاص والأسلحة.¹

في سنة 1511 وبعدما أخبر فيرناند بوجود خمسة وعشرين دوارا على بعد فرسخين من مدينة دكالة، أرسل أربعة فرسان مسيحيين لاستطلاعها، ثم عائدوا إلى أسفي في نفس الليلة. فخرج فيرناند من المدينة في 450 فارسا و500 من الراجلين تاركا حراستها لـ "نونيو كاطو".

خرج فيرناند وحاصر الدواوير، ولما أشرف عليها أمر الفاري دي أتايد أو (دي أطايدي) ودليله لوبي باربيكا أن يتقدما إلى الأمام. تمت محاصرة المغاربة من جميع الجهات فقتل منهم 300 وأسر 567 ورجع البرتغاليون بكل تلك الغنائم إلى أسفي.²

إذا ما أخذنا في الاعتبار الإمكانيات التي كان يتوفر عليها البرتغاليون مقارنة بمعدات المغاربة وخصوصا الثوار بمعنى الذين لا يحضون بأي دعم.

أدت كل تلك الخسائر التي لحقت بالمغاربة جراء الحصار، إلى توافد الراغبين في الدخول تحت طاعة البرتغاليين أكثر من ذي قبل ففي صباح الغد الذي تلى المواجهة، تقدم شيخ أعراب الغربية: عيسى بوبكر وغيره من القادة الذين كانوا ينتظرون فيرناند ليسلموا عليه، و ليعرضوا أنفسهم كرعاء للملك. أصبحوا إذ ذاك يؤدون الخراج له واقتدى بهم مغاربة آخرون جازوا من كل الدواوير.³

عقب وفاة "دي أتايد" بعث ملك البرتغال حاكما لأسفي وهودم "ماسكريناس"، وبمجرد وصوله علم أن المغاربة المتحالفين وقد تكون المعلومات التي كان يخبره بها أبراهام بن زميروا عن نية أوتعفوت الثورة على الملك صحيحة بحكم العلاقة التي كانت

¹ S .J.H.M.PORT. T . I :P : 265

² ديبغودي طوريس، تاريخ الشرفاء، م، س، ص. 17.

³ م. ن. ، ص 18-19

تجمعه وتربطه بالبرتغاليين لم يعرف اذا كان اوتعفوفت قد عزم فعلا القيام بثورة ضدهم اولمجرد الادعاء لكي لا يتعرض للادى من طرف القبائل اولىكون قريبا منهم حتى يعرف ما يخططون له . قد ثاروا فحاول بجميع الوسائل أن يرددهم إلى طاعة الملك، مؤكدا لهم أنهم لن يؤاخذوا بموت دي أتايد والفرسان المسيحيين، وقد نجح في ذلك بالفعل فرجع أهل الغربية وشوشاوة إلى الطاعة.¹

وكان هذا العمل في صالح البرتغاليين إذ لم يكن بالإمكان إخبار الساكنة أو القبائل بالإرادة الحقيقية للبرتغال حتى لا ينفروا منهم أو يواجهوا بالمقاومة وعوض خسارة كل شيء حاول ماسكريناس إرجاع الأمر إلى نصابه .

ويخبر "ماسكاريناس" في رسالة بتاريخ 9 شتنبر 1517 الملك بأن الشريف هاجم القافلتين اللتين بعثهما يحي فرد هذا الأخير دون تردد، إذ هاجمه فغنم وقتل 12 فارسا مغربيا وأسر أحد قواده.² فمن جهة يخبر ماسكريناس الملك البرتغالي بكل ما يجري ومن جهة أخرى كانه عين على يحي كما هو حال كل الحكام حيث يظهر رغم كل ذلك انه لم يكن يثق فيه كونه كان مغربيا ..

كما تبين رسالة أخرى مؤرخة ب 3 يناير 1511 من "تونيو كاطو" (NUNO GATO) إلى الملك إمانويل يعلمه فيها أن أسفي ساحة حرب منذ 23 جتنبر وأن دي أتايد خرج لمواجهة الغزاة(هذا المصطلح ودلالته في تعريف الآخر لدى البرتغاليين الذين هم ساكنة المدينة) الذين رفضوا المعركة كما قام كاطوبجرذ دقيق للمواقع والأسلحة والقيادات في المدينة³ حتى تشمل التقارير التي ترفع الى الملك على أدق الحثيات .

هذا ويشكي نونيو فيرنانديس دي أتايد في رسالة كتبها في 17 من مارس 1511 إلى إمانويل الأول فرار جزء من المحاربين بسبب قلة النقود وأن إستمرار الوضع على نفس الحال سيؤدي إلى

¹ نفسه، ص. 51 .

² S .I.H.M. PORT. T . II ;P : 168

³ Ibid tome I . P 271

هجمة مؤكدة وهذا الأمر أدى في أكثر من موقف إلى الإضرار بمصالح البرتغاليين إذ يعتبر الإغراء المادي أهم عامل لجذب أو استمالة المحاربين من صفوف المغاربة، ويخبره أنه سيضاعف مجهوداته من أجل توفير التموين الضروري لأسفي (من خلال المحاصيل الزراعية)¹ مما سيؤدي بالسكانة إلى المعاناة من الاستنزاف الحاصل من كل الجوانب من جهة الاستعمار (الأرض) ومن جهة أخرى خيراتها وبقوة في فترات الازمة وذلك بالتعويض .

ولتوفير كل ذلك كان من الضروري القيام بعدة إجراءات الشيء الذي سيؤدي إلى إصطدام يحي بالإضافة إلى خلافه مع دي أتايد مع قبطان أسفي ماسكريناس نظرا لاختلافهما حول الطريقة التي يجب أن يتم بها تسيير المنطقة فقد كان يبحث عن الأمن والاستقرار للحفاظ على مكتسبات البرتغال وللحفاظ على مكانته ومنصبه فيما أراد ماسكريناس شن الحروب لتحقيق الغنى.² لا ندري حقيقة هل الاصطدام خلفه تنازع يحي وماسكريناس حول الطريقة؟ أو حول النتائج؟ أو رغبة كل منهما في إبراز مدى ولانه للعرش البرتغالي عن طريق التنافس في طرق الحفاظ على المكتسبات البرتغالية؟ أو هو وسيلة لتجنب السكانة المزيد من الحروب نظرا لانتعاشه لها ؟

لم يرق قبيلة أولاد عمران وهي من قبائل المنطقة، ما كان يقوم به فيرناند إذ كان يمشي عكس مشيتهم، حتى أنهم أخذوا يسيئون كثيرا إلى الذين قبلوا تبعيةهم للمسيحيين حتى إذا اضطروا إلى الخروج عدة مرات من أسفي لشن الغارات عليهم، ولكنها إنتهت لصالحه فأنضاف إلى ما ثم أسره عدد كثير منهم واضطروا إلى الرجوع إلى طاعة الملك من جديد.³

ويتضح أن قبائل آيت باعمران لم تحصد نتائج ايجابية من تعاملها مع البرتغال بل رضخت لسلطتها نظرا للضغوطات والاكراهات التي تعرضت لها في ظل كافة الأوضاع التي كان يعيشها المغرب .

¹ Ibid tome I . P297

² Ibid : t : II : p : 135

³ نيفيو (دي طوريس)، تاريخ الشرفاء، م . س، 52.

في الوقت الذي إكتسب فيه الشرفاء شهرة بإحتلالهم أحد الحصون حيث إنضم إليهم عدد من الفقهاء، وقاموا بشن غارات على التخوم دون أن يحدثوا أي ضرر، مع أنه إنضمت إليهم طوائف أخرى من البربر والأعراب الذين لم يكن لهم رئيس¹. وكل هذه الإجراءات تنم عن تحرك واضح تجاه العدو المحتل وعن بداية المقاومة بشكل فعال وإن كان غير منظم وغير مدعوم ومجهز بالشكل المطلوب إلا أنها وشأن أي مقاومة في البداية تكون بوسائل بسيطة قد تستمر بها أوقد تطورها فيما بعد .

وبالموازاة مع هذه الأحداث حشد يحي أوتغوفت خمسة آلاف من المتحالفين، وقصد (الشرفاء هكذا وردت في المصادر الغمسية لا ندرى من هم بالضبط) "في إطار رد الفعل" فأرسل في تلك الأثناء إلى "نونيو ماسكريناس" يطلب خمسمائة من حاملي الرماح بأسفي، وقطعتين من المنفعية لأنه كان يريد التوغل حتى يصل إلى مراكش، ليتغلب عليهم آنذاك لم تكن العلاقات قد توطدت بين يحي وبين "دم (وتعني تراتبية معينة) نونيو"، فحرض الكثير من خصوم القائد المغربي الحاكم البرتغالي على عدم تقديم أية مساعدة له². مما يسمح بالدخول في مجموعة من التاويلات من بينها أن علاقة يحي بالعرش البرتغالي كانت جيدة حتى استفز ذلك الراغبين من المغاربة في ربط علاقات مع البرتغال، - فقاموا بتحريض هذا القائد أو هو مجرد ادعاء أو مغالاة في حق يحي أوتغوفت ...-

من جهة أخرى فإن منصب يحي أوتغوفت خلق له العديد من الأعداء، وهذه مسألة طبيعية سواء من الراغبين في الحصول على نفس الإمتيازات أو من الذين صنفوه ضمن الخونة سواء من المسلمين كما رأينا أو من اليهود كما سيظهر في مواضع أخرى. لكن الأساس هو نقل الوقائع والأحداث وتبقى الموضوعية نسبية في ظل الخصائص البشرية للمؤرخ والتي لا يخرج عنها .

هذا وقد قام "فرنانديس دي أتايد" بإرسال رسالة إلى إيمانويل الأول في 27 ديسمبر 1514 يخبره فيها بأن "الفارودي أتايد" قام بالبحث حول تصرفات يحي أوتغوفت، وقد ثم إرسال محضر

¹ نفسه، ص. 50.

² نفسه، ص. 52 .

للملك منذ ثمانية أيام مفاده أن هناك خلافات حادة بين أتاييد وبين يحيى، كما أوضح أن الفترة التي تواجد فيها يحيى في البرتغال كانت فترة راحة وهذنة، بالنسبة للبلاد وفترة رخاء إقتصادي وعبر عنها ب (توسع الحرث).¹

وتؤكد رسالة "نونيوفيرنانديس" إنتصار البرتغاليين على الشريف في غياب أوتغوفت بما معناه أنهم قادرون على تحقيق انتصارات دون الاعتماد على يحيى كسند لهذا الاحتلال، وفي 12 شتنبر 1514 حيث يخبره فيها أنه وجد صعوبات جمّة، في اقتسام خمس الغنائم التي حصلوا عليها من الشريف، كما أخبر الخدام من عبدة والسجة، والغريبة أتاييد بعدم إرسال المسيحيين ما وراء مراكش، لأن سيد الجبل يترصد بهم.²

لم يكن الشريف وحده الذي يريد السيطرة على المدينة إذ لا يجب أن ننسى القوة الوطاسية فقد كانت تمثل شبحا بالنسبة لقبائل المنطقة إذ يجب البحث حول مسألة الولاية الوطاسية من إلى متى؟، وذلك ما تعبر عنه رسالة بعث بها أحد الدكاليين إلى شيوخ عبدة في يونيو 1517 لإشعارهم بدخول السلطات إلى المنطقة حيث ورد فيها الآتي :

"السلطان جا، هربوا للشريف، وكل ما شئكم فيه إعطوه ليه، لا تفرطوا فيه. أكان ما قبل عليكم الشريف هربوا للملى "النصر" ملى مراكش، أكان الناس أعطوا الخيل، إعطوا الأولاد، أكان مونكم رقدوا بالأمان، إذا ما مونكم هربوا لبلاد تنجوفيهها، ملى ببكر وملى بحسن وملى النصر وملى محمد الشريف طلغوا للقوق، وملى محمد خرج لزمر وأسف، وأنتم دبروا على أرواحكم."³ وهذه الرسالة تبين من جهة مكانة هذا المرسل إذ كان على دراية بكل التطورات التي تجري في الساحة كما تبين نوعية العلاقة التي كانت تربط بين شيوخ عبدة ووكالة .

¹ S.J.I.M. PORT. T. II :P : 667

² Ibid.:P 630-631

³ Ibid. T. II .P : 95-106

كما ويظهر أن المنطقة ككل وقعت وسط مجموعة من القوى التي تتصارع حول السيطرة عليها من بينها زعامات محلية بالإضافة إلى ما تبقى من الدولة الوطنية دون أن ننسى الدولة البرتغالية. مما جعل الساكنة تحتار أي طرف يجب أن تمنحه ولاءها وبذلك إختارت بعض الأطراف الجهة التي تترتاح في التعامل معها والتي تقتضي المصلحة أن تتعامل معها .

هذه الأطراف كلها كانت تسعى إلى إيجاد طريقة للتحكم في المجال مما خلق ردود أفعال متباينة لدى ساكنة المنطقة .

وبما أن الحديث عن الوضع السياسي بالمدينة اقتضى منا الحديث باستفاضة عن شخصية يحي أو تعفوفت باعتباره قائدا للمنطقة فمن بين المسائل التي يمكن القول أنها تدل على " إستقلال " أسفي عن الوضع العام بالدولة المغربية، كونها خضعت لزعامات محلية في ظل الوضع أو الأوضاع التي كانت تعيشها حيث سن يحي قوانين تعتمد على الشرع، والعرف القبلي، يذكر فيها كل الجنايات (القتل، الجرح، السرقة، الشتم، الضرب، إنتهاك الحرمات، التهمة، الديون، الزنى، ضرب المرأة ...) وحدد العقوبات التي تلزم كل واحدة من هذه الجنايات .¹ وفي هذا تصريح بخصوصية المنطقة بالرغبة في خلق دستور أو قانون ينظم المجال ولا ينفك كل ما ذكر عن العلاقة بالبرتغاليين .

وقد ساهمت مجموع العوامل في تفاعلها مع بعضها البعض الى الرغبة في التعجيل بتنحية أو تعفوفت .

حيث قامت قبيلة أولاد عمران بتدبير مقتل يحي أو تعفوفت على اعتبار علاقته المتوترة بهم، فإغتصموا فرصة ذهابه لتعزية صديق وكان برفقة ثلاثة شيوخ، فنخل عليهم شيخان من أولاد عمران وهم يتناولون طعام "العشاء" فاغتالاه بطعنات خنجر دون أن يستطيع من كانوا برفقته إغاثته على ما يبلوه من جهد، ففي نهاية المطاف قتلوا جميعا.

¹ Ibid. T . I ; P : 316-327

وهكذا وبمجرد موت يحي أسرع أولاد عمران "لنهب" الدواوير التي كان يقيم بها خمسون مسيحيا وتأتي هذه الأحداث في إطار رد الفعل على الأحداث التي جرت لقبيلة أولاد عمران، فحملوا عليهم السلاح وانتزعوا منهم كل شيء وقتلوه. لما بلغ الخبر ماسكريناس خرج للبحث عن "الخونة" وإقتفى أثرهم ولحقهم على بعد فرسخين من المدينة وهناك قاتلهم وهزمهم، حيث قتل 50 "أعرابيا" من الغربية، بينما سيق حوالي 650 أسيرا انتقاما لموت أوتغوفت والخمسين مسيحيا.¹

بذلك تكون ولاية أوتغوفت على أسفي قد امتدت من غشت 1507 إلى ما قبل 16 فبراير 1518.² هذه الفترة التي يمكن القول عنها أنها تميزت عن سابقتها وحتمًا سيظهر الفرق بعدها وقد منى البرتغال بهذه الوفاة من حيث لم يحتسبوا.

وبذلك كان موت أوتغوفت فاجعة على البرتغاليين بأسفي لأنه لطالما خدم الملك بوفاء، هذا الأخير الذي أيقن بجسامة الخسارة، أخذ يدعم الوجود المسيحي في كل مرة بإرسال أعداد مهمة باستمرار إلى المدينة. تغطية للفراغ الذي أخذ يتسع في المدينة في غياب الرأس المنفذ.

وقد انعكست هذه الأوضاع على المنطقة حيث تقدم لنا مجاعة 1521 مثالاً معبراً عن الوضعية الاجتماعية - السياسية التي سقطت فيها المدينة بشكل خاص وسهل دكالة - عيدة بشكل عام، فقد أدى استنزاف خيرات المنطقة بالإضافة إلى الجفاف الذي ضربها إلى بيع المغاربة أبناءهم ونساءهم قبل بيع أنفسهم لتجار الرقيق البرتغاليين بأسفي بثمن زهيد.³ إذ لم تمس التطورات السياسية قطاعاً دون آخر ولم يكن لكل هذه التغيرات السياسية أن تمر دون أن تمس المجتمع.

¹ نفسه، ص. 51-52

² بوشرب (أحمد)، دكالة والاستعمار البرتغالي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1984، ص. 220

³ DE Torres ; relation de l'origine et succès des chérifs ; Paris ; 1630 ; I ; P 194

في سنة 1529 بعد أن تخلص الشرفاء¹ من "دي أتايدي وأوتغوفت ولوبي باريكا"، وقد كتبوا إلى ملك مراکش ويعثوا إليه بهدية -عبارة عن أسرى مسيحيين- وأشياء أخرى معلنين أنهم مستعدين لخدمته ضد مسيحي أسفي. وهذه إشارة تبين تمكن الشرفاء بعد قضائهم على يحيى أوتغوفت من التحكم في المجال وأن التواجد البرتغالي انتهى بوفاة أوتغوفت .

كما انطلق بعد ذلك الشريف الأكبر من مراکش على رأس "جيش" يضم أكثر من مائة ألف رجل حاملا معه كل ما يلزم للحصار، سار إلى أسفي عازما "إحتلالها" لكن وبعد مباشرة الحصار ظهر التفوق المسيحي فتراجع الشريف وانسحب.² الملاحظ أنهم لم يتوقعوا رد فعل البرتغاليين إذ لم يكن بالإمكان أن يستسلموا بسهولة والدليل على ذلك هو تدعيمهم للوجود بأعداد أضخم .

حسب تقرير بعثه أحد السكان البرتغاليين من أسفي عاد من مهمة بمراكش مؤرخ ب 3 شتنبر 1539، كان عدد التجار البرتغاليين والفرنسيين والإسبان بمدينة مراکش كبيرا، كما أصبحت مداخيل الضرائب تسمح لأحمد الأعرج بتجهيز وتجنيد 500 فارس وذلك ما سيعطيه القوة للإغارة على مدينة أسفي وغيرها³.

لم تكن كل الأطراف راضية عن حصار الشريف لمدينة أسفي. ففي رسالة مؤرخة ب 5 شتنبر 1542 يخبر فيها "سيماوكوريا" الملك، أن أهل أسفي هاجموا الأراضي الخاضعة للشريف، والتي تعرضت بها بعض قوافل أهل الغربية للنهب، وقد تم أسر صهر الشريف، بل يقولون أن الشريف توفي، ويضيف سيماوكوريا: "إن جلالتم تعرف أهل اسفي ومدى ولانهم لعرشكم ومن ثم فهذه المعركة القائمة بين الشريف وأهل أسفي تخدم مصالحكم .

¹ وردت كلمة الشرفاء لدى كل من ديفيودي موريس في كتبه : تاريخ الشرفاء وهنري دوكانستر في المصادر الثمينة: الأرشف البرتغالي في العديد من الوثائق ويظهر ذلك فيما بعد، دون التعرف على الهوية الحقيقية لهؤلاء الشرفاء كالاعتراف على أسمائهم مثلا

² دي طوريس(دييفو) تاريخ الشرفاء، م، ص، ص 53

³ S .I.H.M.PORT. T . III.P : 220-223

كما يصف له ما يجري في أزمور ونواحيها ويبين له الوسائل التي يراها ناجعة لصموده في وجه مولاي محمد حيث جاء على لسانه : "إذ هناك أهل أسفي في خدمتكم وأتباعهم فهم قادرون على منع دخول مولاي محمد لدكالة بمفردهم وولاءهم لنا هو بمثابة ركيزة تجعل كل تلك القبائل مضطرة إلى إستشارتي إن هي أرادت التوفر... على قيادة".¹

وفي الحقيقة قد يكون الوضع اعقد من الحديث عنه بهذه الطريقة حيث أن موقف الشريف من ساكنة المنطقة قد يكون سببا في دفعه للتعامل مع أهل المنطقة بنوع خاص من التعامل كما من الممكن أن تكون ساكنة المنطقة إما بدوافع ذاتية أو بإيعاز من الوجود البرتغالي رافضة للسلطة المحلية لأنها لا تحقق لمصالحها الشخصية أية منجزات وفي ظل الندرة التي تطال المصادر التاريخية التي تتحدث عن هذه المنطقة وعن الفترة تبقى الفرضيات قائمة، إذ تطرح أسئلة حول مصداقية ما ورد في هذه الرسائل.

ينكر الناصري في الإستقصا "أنه لما زحف الأشراف إلى بلاد عبدة كان بينهم وبين يحيى المذكور ونصاراه معركتان شديتان، كان الظهور فيهما ليحيى، لكن أبا العباس الأعرج تدارك أمره فورا وجمع عسكريا آخر، وخطبهم ووعظهم، وزحف إلى يحيى المذكور ففضه وفض نصاراه إلى أن نجحوا بأسفي وأغلقوا عليهم وأتيح لأحمد ما لم يتقدم لغيره فيهم فبذلك تأتى له أن يتناول ملك المغرب".²

تجدر الإشارة إلى وجود غموض في بعض المعطيات التاريخية بين ما ورد مثلا في المصادر الغميسة الأرشيف البرتغالي حول وفاة أومقتل يحيى سنة 1518 على يد قبيلة أولاد عمران وبين رواية الناصري الذي يقول فيها بأن مقتل يحيى كان على يد أبي العباس الأعرج وأنه بقضائه عليه استتب له حكم المدينة أي حوالي 1530

¹ ينكر عي (حليمة)، ترجمة وثيقة برتغالية مصدرها الخزنة الوطنية البرتغالية بليشونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفيتورة، ص. 123

² الناصري (أحمد)، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م. ب.، ج 4، ص. 10.

بل يربط سيطرته على مدينة أسفي بسيطرته على المغرب ككل وهذا ما يطرح نوعا التناقض الذي لابد من طرحه .

يقول الناصري عن الخروج من أسفي في كتابه الإستقصا :
"رايت في تواريخ الفرنج أن البرتقال (البرتغال) خرجوا من أسفي سنة 1530 مسيحية... وهي وسط دولة السلطان أبي العباس وزعم هذا المؤرخ أنهم خرجوا منها من قبل أنفسهم ونقلوا جميع ما كان فيها من عدة.... بعدما خربوها وأفسدوها وأوقنوا فيها النار، قال وبقيت 12 سنة مخربة إلا أن أصلحها السلطان محمد الشيخ السعدي الأتي ذكره "1... فهو السلطان الذي صرف عزمه لجهاد العدو وكان منصورا بالرعب حتى ترك البرتغاليون له أسفي وأصيلا من غير قتال سنة 1542. 2

كما أنه دافع أشد دفاع عن الوطن وأجلى البرتغاليين عن سواحل السوس كما أنهم ألقوا عن مرسى أسفي وأزمور، الشيء الذي لم يتأتى لغيره من قبل 3 وتكون بذلك المدينة قد نالت استقلالها في هذه الفترة لتبدأ مرحلة تاريخية أخرى اختلفت فيها الكثير من الحثيات .

3- الأصول الإثنية ليهود المدينة

احتضنت مدينة أسفي شأنها شأن بعض المدن المغربية العتيقة، تواجدا يهوديا قديما وآخر حديثا و- هو المؤكد- في الفترة الحديثة من تاريخ المغرب، كما تشهد بذلك المصادر والمعطيات التاريخية 4 .

أما بخصوص التواجد القديم وبحكم شح المعلومات في المصادر الأدبية، وحتى المعطيات الأركيولوجية، فالحديث عن

1 الناصري، (أحمد)، ص 16، كما نجد في الهامش قرر البرتغال إخلاء أسفي في السنة المذكورة ووقع خلاف بينهم ففي الأمر موقوفا إلى سنة 1541 فتم إخلاؤها حينئذ لما اجتمع المسلمون حصن فونتي غرة

2 S.I.H.M. PORTIGALS; tome II ; p : 294

الناصرى (أحمد)، الإستقصا، الجزء الخامس، م، ص، ص. 19 - 20.
3 السليمي (عبد الله)، اللسان العرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، مطبعة الأمية، الرباط الطبعة الأولى، 1971 ن، ص 74.

4 كرينية (إبراهيم)، أضواء على الربى إبراهيم بن زمير السبعة بأسفي، الطبعة الأولى، 2005، ص 26-27

تواجد فعلي مدعوم بالمصادر يبقى ضعيفا جدا أو منعما، إذ وبالرغم من إشارة بعض الدراسات التي أتت حول هذا الموضوع فإنها تبقى غير مؤسدة لبناء معطيات تاريخية سليمة في هذا الصدد.

ويشير الحسن الوزان إلى التواجد اليهودي في المدينة بقوله:
كان بمدينة أسفي قديما عدد كثير من الصناع ونحو مائة دار لليهود¹.

أما بالنسبة للأصول الايبيرية لليهود المدينة والتي تحظى بمصداقية أكبر نظرا لتدعيم المادة المصدرية المتوفرة لذلك، فبعض العائلات ذات الأصول الإسبانية والتي هجرت البلد إلى البرتغال طلبا للنجاة هربا من الاضطهاد، لكن مصيرها كان هو الطرد إلى جانب المسلمين.

إذ نص قانون 31 مارس 1492، على خروج اليهود بأمر من الملك فرنانديس من إسبانيا في أجل لا يتجاوز 31 يوليوز من السنة ذاتها تحت التهديد بالإعتقال والمحاكمة والقتل، لكن مقامهم بالبرتغال لم يعمر طويلا إذ سرعان ما جرى ملوكها جيرانهم الإسبان.

وقد شهدت فترة الملك البرتغالي إمانويل (1494-1521) أحلك الفترات بالنسبة لليهود في تلك الفترة حيث أصدر هو الآخر قانونا يقضي بخروج اليهود من البرتغال خلال أحد عشر يوما ويوصي بـ"تنزاع أطفالهم منهم وحجز أموالهم وممتلكاتهم والإبقاء على من قبل منهم للتتصر والارتداد عن ديانتهم ويقدر عددهم بحوالي مائة ألف نسمة²".

وتأتي الغاية من الحديث عن الأصول الايبيرية لليهود أسفي تبين الفرق بين اليهود الأصليين الذين كانوا يتواجدون بالمدينة وبين اليهود النازحين من الأندلس ومن البرتغال إبان الطرد الجماعي ومحاكم التفتيش.

¹ الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، الجزء الأول، م.س.، ص. 147.
² كريدية (إبراهيم)، "اضواء على الربى إبراهيم كبير أولياء بن زميروا السبعة بالسفي" ص 26-27.

ما ذكر وعلى الرغم من قلته إلا انه يوضح إلى حد ما وجود صنفين من اليهود، كما يوضح الظرفية التي رافقت استقرار هذه الفئة بالمدينة وما تعرضت له، إلا أن المادة المصدرية وحتى الدراسات التي تتناول الفترة بالدراسة والتحليل، لم نجد فيها إلا النذر القليل من المعلومات والتي لا تسمح بالتفصيل أكثر اللهم بالخروج عن الموضوع .

وتجدر الإشارة إلى أنه في هذه الفترة سيظهر مصطلحا "التوشابيم" و"الميفوراشيم" تعبيرا عن التمييز بين اليهود الأصليين واليهود المهاجرين وستبرز الحاجة لهذا المصطلح أكثر في المدن ذات التواجد اليهودي المهم (أسفي) .

لكن وعلى الرغم من ذلك، لا بد من الإشارة إلى ما ورد بخصوص بعض العائلات اليهودية الوافدة على المدينة من مجالات أخرى في فترة سابقة على الفترة الحديثة كما أشارت لذلك بعض الكتابات : إذ نجد على سبيل المثال : "أفلو" من تافيلالت و"الدرعي" من درعة و"ابن السوسي" نسبة إلى بلاد سوس و"بلفاسي" نسبة إلى فاس¹. وقد اشتهرت الأسر اليهودية عامة بالتنقل نظرا للنشاط الذي كانت تمارسه وهوفي الغالب التجارة والعطارة

وفي الجدول التالي سيتم تقديم الأسماء اليهودية وأصولها الأمازيغية ومعانيها كما هو مبين :

¹ نفسه، ص. 27-29

الألقاب اليهودية	أصولها الأمازيغية	معناها
أمزلاغ	أمزلاغ	التيس
أزانكوت	أزانكود	الغزالة
بن حمو	بن محمد	-----
بن عبو	ابن عبد الله	-----
بن زاغلو	-----	الرجل ذو الطوق الحديدي
بن غاتيم	-----	الرجل ذو القصب
إيلوز	-----	الإحساس بالجوع أو العيش في الفقر
خفافوا	أخنيف	البرنوس الأسود
ميلو	أملول	أبيض
أوزانا	أزانا	ابن السماء
ويزمان	إيزم	ابن الأسود

تبقى العديد من المعطيات التاريخية المتعلقة بهذه الفترة، وبهذه الفئة، مبهمّة في ظل غياب وثائق تزيل الغموض، وتكشف صحة الفرضيات من عدمها، فلا نكتسي أي فرضية مصداقيتها بدون حجج أو أدلة. على الرغم من وجود العديد من الإشارات التي تحيل فعلا على تواجد سابق وحتى يتحقق ذلك نكتفي بما توفرنا عليه من معلومات في ظل كل الحثثيات المرتبطة بالموضوع .



35. Scènes et types - MAROC - Un jeune juif marocain

الفصل الثاني:

العلاقات والوظائف

1- علاقة اليهود بالقوى المحلية

2- علاقة اليهود بالبرتغال

3- أنشطة ووظائف اليهود

أ- التجارة

ب- وظائف أخرى

1- علاقة اليهود بالقوى المحلية

إذا كان المجتمع المغربي قد اعتاد كباقي المجتمعات تهميش الفئات التي تميزها صفات معينة كالمجانيم والحمق واليهود (في بعض الفترات التاريخية)¹ فقد عرف البرتغاليون كيف يربطون علاقات متينة معهم وبخاصة (الميكوراشيم)²، والتي خدمت مصالحهم إلى حد بعيد.

إن السيطرة الاقتصادية التي حصلت لليهود النازحين (الميكوراشيم) إلى المدينة ابتداء من 1510، نتيجة للصراع الذي دار بينها وبين الفئة الأصلية (التوباشيم) كما نتحدث عن ذلك الوثائق البرتغالية هذه السيطرة أعطت هذه الفئة دون غيرها قوة سياسية جعلتها فاعلة في عدد من الأحداث الكبرى.³

فقد لعب اليهود داخل المدينة أدوارا عدة، تمكن من خلالها البرتغاليون من توطيد سيطرتهم على أسفي في وقت أقل، حيث أوقعوا بين علي بن وثمان ويحي أوتغوفت أثناء نزاعهما حول حكم المدينة.⁴

وفي هذا الإطار ندرج قضية الطبيب اليهودي الذي كان يزور "كارسيا دي ميلو"، لأنه كان مريضا وقد أرسل بطاقات، أنت في نهاية المطاف إلى خلق نزاع بين علي بن وثمان ويحي أوتغوفت. حيث كان يوهم كلا منهما أن صاحبه يريد قتله ليلجأ إلى طلب العون من البرتغاليين، وكان هذا الطبيب يأخذ البطاقات من يد "كارسيا" وهويجس نبضه في السرير ويرجعها له بنفس الطريقة.⁵

¹ بوشرب ('حمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي، م. س.، ص 87

² اليهود النازحون من الاندلس والمطردون

³ S : I : H : M. port : tome : I : p : 345-348 -349

⁴ ibid : p: 175

⁵ مارمول (كاربخل)، إفريقيا، الجزء الثاني، م. س.، ص. 73.

فكان المغربيان يقدمان إقتراحات مهمة للبرتغاليين حتى يستعين بهم كل منهما ضد خصمه فساعداهما على الدخول مع خمسين جندياً¹.

وإن كان كل ما ذكر أنفاً عن مساهمة الزعامات المحلية في تسريع الاحتلال وفي بقاءه فإن الدور اليهودي في هذه القضية ثابت وله وزنه في سيرورة الأحداث وفي مآلها.

وتظل خصوصية الأقلية التي تسري على اليهود في أغلب المجتمعات متحركة إلى حد ما في جعل هذه الفئة تحارب ضد الإحتواء الذي تقع فيه داخل المجتمع ولكن لا يتأتى لها ذلك، إلا عن طريق السيطرة على المجال الاقتصادي- التجارة بالدرجة الأولى - كما هو الحال بالنسبة لمدينة أسفي.

فخولها كل ذلك التحكم في بعض القضايا وتبوأ مكانة سياسية واجتماعية معينة، إذ والحالة هذه كان لابد من أن تلتقي مصالحها بمصالح الدولة الحاكمة (البرتغال) كما كان تقربهم من القوى السياسية المحلية بمثابة حصانة لهم وهم الذين يمارسون التجارة الشيء الذي يجعلهم دائماً مستهدفين عند حدوث الفتن والإضطرابات وضعف السلطة².

فقد توجه يحي مع أهل الغربية وعبد، وبعض حملة الرماح نحو الملاحات ومن هناك أرسل في طلب أولاد عمران لكنهم تأخروا عن المجيء ببضعة أيام. المهم أن هذا الحدث من بين الأسباب التي جعلت اليهود لا يحبذون التعامل مع يحي أوتعوفت فيما بعد ويحتاطون منه³.

وقد صرح الرابي (Rabin) أبراهام بن زميروا في رسالة منه إلى إمانويل الأول بتاريخ 12 أكتوبر 1512، أنه إذا أراد أن يصبح سيد البلاد فمن الضروري أن يسحب القيادة من يحي كما أخبره بأنه

¹ مارمول (كزبخال)، إفريقيا، ص 74

² المنصوري (عثمان)، التجارة في المغرب في القرن السادس عشر، م. س. ص. 361

³ دي طوريس (بيغو)، تاريخ الشرفاء، م. س. ص. 51

لا يعرف (الملك) تصرفات أوتغوفت، فلو كان فعلا يدري حقيقته لتفاجأ .

وهنا تظهر محاولات التأليب التي كان يقوم بها اليهود في محاولة منهم لاكتساب مكانة المغاربة ونيل امتيازاتهم .

حيث اعتبر الربى هجوم ملك مراكش على المدينة كان سببه تصرفات يحيى، وأن مخططه كان سحق عبدة واستدراج ككالة وأهل المدينة وأولاد عمران، وأنه خطط لإغتيال دي أتايد لكن هذا الأخير تفتن لذلك فأخذ إحتياطاته على هذا الأساس¹.

كما يضيف أن تصرفاته أثناء المعركة تتم عن نية مبيتة بغدر الملك حيث يقول بأن الفرقة التي كانت تحت إمرة هربت من المعركة لإستدراج الآخرين، هو الآخر لم يتقدم إلى الهجوم بل قام بالإختباء .

بالإضافة الى قيامه بتحرير 300 أسير بعد إنتهاء المعركة خير دليل بالنسبة لأبراهام أنه تجاوز حده وبدأ يتصرف كملك وليس كقاتل تابع للملك وفي نظره يجب أن يؤدي ثمن تصرفه برأسه، ويضيف أنه يربط علاقات في الخفاء مع بعض الأهالي الذين يريدون أوضاعا جيدة ويأخذ منهم في المقابل هدايا².

يظهر من خلال هذه الرسالة دقة المعلومات التي يتوفر عليها الربى أبراهام كما يظهر إلى جانب ذلك تحامله على يحيى وذلك بتحريض الملك على قتله ويحملة مسؤولية المصائب التي حلت بالمدينة.

كما قام "نونيو دا كونها" (NUNO DA GUNHA) رفقة أوتغوفت بالنحول إلى الشياظمة وإفراغ المخازن مقتحمين حسب الربى أبراهام أماكن لم يكن يتصور أن يصل إليها المسيحيون،

¹ S : I ; H : M portugais ; tpme : I ; P: 356

² ibid : I ; P: 356

وأن يحي كان سيتقدم جميع الأهالي الذين يريدون الخضوع ويعالج معهم الأمور كما لو كان ملكا دون أي إستشارة¹.

ولم يكن أبراهام يرسل تقارير عن تجاوزات يحي وحسب بل كان يضمنها كل ما لا يصب في مصلحة الملك حتى وإن كانوا من خدام الملك أنفسهم.

مما يزكي أقوال أبراهام بن زميروا ما تضمنه بلاغ ضد يحي أوتغوفت مؤرخ ببداية 1513 ينصح فيه شيخ الغربية "بن يهودا" زوجات أربعة شيوخ من أولاد عمران- آتين لرؤية أبنائهن- أن يذهبن ليحي أوتغوفت لرؤية الأمر معه في هذا الشأن وكذا بالنسبة للحصول على الأراضي من أجل حرثها، كون الأمور كلها بيده وكون حاكم مدينة أسفي (البرتغالي) لا حول له ولا قوة².

يضيف بن زميروا أن جميع القرى الحدودية على ضفة البحر تدفع الضريبة وهدايا ليحي كما كان هو الملك فقام على إثر ذلك بتعيينهم قيادا تحت إمرته.

كما كشف سليمان (قريب أبراهام) عن بعض التصرفات التي كانت تبوؤ ضد مصلحة الملك، سعيد ابن أخ أواخت يحي والذي كان يحل محله خلال تواجده بالبرتغال كتب بشكل خاص أنه لا يطيع إلا يحي الذي هو ملك المغاربة والمسيحيين³.

ونظرا لكون أبراهام بن زميروا كان ثقة فقد إلتجأ إليه دي أتايد في رسالة بتاريخ 12 شنتبر 1514 إلى إمانويل الأول، في قضية رهينة المدينة (الحاج)، قد أحدثت خلافا حادا بينه وبين يحي، كونه أكثر خطرا من الشريف وذلك لرغبته في الإستيلاء على البلاد كلها لكنه قد تنبه لذلك مبكرا⁴.

يخبر نونيو دي أتايد إمانويل في رسالة بنفس التاريخ أن يحي أوتغوفت قتل عبد الجليل وداردير و (dardeiro) وأنه كان يريد

¹ Ibid tome : I : p 356-357

² ibid P: 378

³ ibid P:619-620-621

⁴ ibid P : 630-631

أيضا قتل سليمان ولم يتم إخبار الملك بذلك لكن إسحاق بن زميروا أخبر أتاييد بذلك وحذره من تشويشه على علاقتهم ب (Pedro des Sourga) "بيدروا دي سورغا" بسبب الخلافات التي يحدثها.¹

كما أن يحيى أوتغوفت كان معارضا للإحتلال البرتغالي لأسفي ولما بدأ التجار البرتغاليون وبخاصة اليهود (أسرة بن زميروا)، يتدخلون في الشؤون الداخلية للمدينة ويخلقون الحزازات بين الزعامات المحلية من جهة وبين يحيى والبرتغال من جهة أخرى أخذت العلاقة تتشنج بينه وبينهم.²

فقد كان أبراهام بن زميروا يكره يحيى أوتغوفت والمغاربة على حد سواء.³

اذ خلقت العلاقات التي كانت تربط يحيى بالعرش البرتغالي معارضة قوية له تمثلت في معارضة بعض القباطنة وبعض العناصر اليهودية - خاصة أبراهام بن زميروا- حيث إصطدمت مصالحها مع مصالحه .

وذلك راجع الى إنتصاراته الأولى على الناصر الهنتاتي سنة 1512، والتي أدت إلى تزايد شهرته في المنطقة وفي تنامي العداء اليهودي له وهكذا تعرض خلال نفس السنة لإتهاماتهم وأخطرها إعداده لخيانة المسيحيين وإغتيال القبطان وتسميه بالملك في بعض رسائله وتعيينه لبعض الشيوخ والمقدمين دون إستشارة الملك⁴

لكن نجاح يحيى أوتغوفت ساهم في تهدئة عبدة والغريبة سنة 1516، وإلى اختلافه مع القبطان ماسكريناس (فيحيى كان يريد المحافظة على الأمن والإستقرار بينما كان يريد ماسكريناس ومن معه الحروب للحصول على الغنائم)، مما خلق له مواجهات مع

¹ S : I : H : M portugais ; tpme : I ; P 658

² ibid p 138

³ ibid P:

⁴ ibid ; p : 337-378-381- 385

القبطان ومساعديه زانتها أسيرة بن زميروا اليهودية حدة لأنها كانت على علاقة جيدة مع القبطان ومع العرش ككل .¹

لم يكن نجاح يحيى في تحقيق الهدنة وحده سببا في كره اليهود ليحيى فقد كان منافسا له في دور الوساطة مما جعل بعض الأسر اليهودية في المنطقة تقوم بدور بارز في هذه الخلافات.

فلم يتردد أبراهام بن زميروا في الكتابة للملك بأن مصلحة البرتغال تقتضي ألا يسند أي مهمة لأي مغربي وليحيى أوتغوفت بخاصة .²

كما ضمن هذا الحاخام مذكراته جميع الخروقات التي يقوم بها يحيى والتي لا علم للملك البرتغالي بها .³

فقد كان قتل اليهودي موسى درديروا (التاجر والمترجم)، والمتهم بإخبار قبطان أسفي بكل تصرفات يحيى ضد المسيحيين سببا آخر في تشنج العلاقة ما بين يحيى والأسر اليهودية لأن مقتل هذا اليهودي كان على يدي يحيى الذي قطع رأسه .⁴

دفعت كل هذه الشكاوي الملك البرتغالي - نظرا لإرتباط مصالحه بكل الأطراف- إلى تقسيم المنطقة بين قبطاني أسفي وأزمور، لإخراج الشرقية من سلطة يحيى التابع لأسفي وذلك لتفادي تقوية نفوذ يحيى وتعزيز وزنه السياسي.

استمر أوتغوفت رغم كل المزامرات من طرف اليهود، في الدفاع عن المكتسبات البرتغالية .⁵

إذ هرب اليهود دائما من أي منطقة كان الأمن فيها مهددا ومن أمثلة ذلك هروبهم من فتن واضطرابات مراكش سنة 1541، على إثر النزاع الذي شب بين المولى أحمد وبين أخيه محمد الشيخ وإنقطاع تجارة تارودانت والجنوب عن مراكش وكذا بسبب

¹ S ; I ; H ; M portugais ; tpme : II ; P : 357 n 29-30-31

² ibid ; tpme : I ; p : 356

³ ibid ; p : 619- 629

⁴ ibid ; p : 358

⁵ ibid ; p : 335

المجاعة والجفاف، لذلك إلتجأ اليهود إلى أسفي بأموالهم لأنها أمن لهم.¹

وإذا كانت علاقة بعض اليهود النازحين بالمغاربة على هذا النحو فاليهود الأصليين لم تكن لهم نفس المعارف التي توفرت لغيرهم بل كانوا جزءا من النسيج الاجتماعي والثقافي المغربي .

وقد جرّت المعارضة اليهودية ليحي أوتغوفت معارضات أخرى من بينها المعارضة البرتغالية (أتايد وماسكريناس)، بل وحتى من داخل المدينة بتحريض عدد من السكان على مواجهته والخروج عن طاعته، مما جعله في حيرة من أمره فلم يعد يحس بالإنتماء إلى أي جهة. يظهر ذلك بشكل جلي في الرسالة التي بعث بها إلى أحد أصدقائه بالبرتغال يقول له فيها : "يقول عني المسلمون أنني نصراني ويقول النصارى عني مسلم، أثارجج هكذا دون أن أعرف ماذا أفعل بنفسي".²

ولم تكن العلاقة متوترة دائما بل اتخذت مختلف الأشكال التي تتخذها في العادة بين المسلمين بعضهم البعض.

حيث نجد في رسالة مؤرخة ب 1 يوليوز 1510 والمرسلة من "جواولوبز دي ميكا" إلى إمانويل الأول يخبره فيها أن مولاي زيان حل بمنزله بالقوة. وقد حلّ بالمدينة كوالي بيده السلطة والفصل في قضايا المسيحيين واليهود وأيضا بعض المغاربة من الطبقات الدنيا.³

استعمل الملك البرتغالي هذه الفئات في محاولة إرضاء القوى المحلية وذلك بتحكيمهم عليها، لكن الأمر لا يسري على كافة اليهود إذ توجد بعض الإستثناءات وتطال بخاصة الأسر التي ترتبط في علاقات مع العرش.

¹ S : I ; H ; M portugais ; tpme : III ; P : 407-440

² ibid ; tpme : II ; p : 106-107

³ ibid ; tpme : I ; p : 230

في رسالة بتاريخ 2 يوليو 1509 من ساكنة أسفي: عبد الله بن جط مسعد وهس، منصور بن سعد الله، أحمد بن حد، علي بورحيس، إلى إمانويل الأول، يتشكون فيه من تجارة الرقيق... وبهذا الأمر يا مولانا عادت رجالك تشتري في المسلمين ويأخذونهم غصبا وقهرا وعادت السراق من المسلمين واليهود يسرقون أولاد العربان والمصامد.¹ فامتهان اليهود لتجارة الرقيق في المسلمين كان يجر عليهم العدا.

كما كان الشرفاء السعديون يكونون العدا لليهود وبخاصة المتعاملين مع البرتغاليين.² هكذا اتخذ ضدهم أحمد الأعرج مجموعة إجراءات لكن سرعان ما اضطر إلى التخلي عنها تحت ضغط قبطان أسفي³

كما يتجلى العدا أيضا من خلال رسالة بعث بها أحد أفراد بن زميروا من "تيكورارين" إلى أحد أقاربه يذكر له فيها أن جواب جنود الأعرج على سؤال اليهود المتعلق بعدد يهود ممالك سلطنتهم كان هو "قللهم (قل لهم) عندكم شي يهود؟ قللهم الفرسن عندن كثير من اليهود (اليهد) للغرم والضرب والشتم". لهذا ردد كاتب الرسالة ثلاث مرات عبارة "الشريف الله يمح اسمه".⁴

ويظهر ذلك أيضا من خلال هذا البيت الشعري الذي قال "المجنوب" فيه والذي عاصر الفترة بقوله .

حتى واحد ما غشاش كالمراة واليهودي⁵

وقد نتجت هذه النظرة القذحية أساسا عن نظرتة لليهودي الذي كان على علاقة جيدة مع البرتغاليين بالأساس ومن معاملاته التجارية التي كان يرى فيها المغربي أنه يقع ضحية مكر ينطلي عليه من طرف هذا التاجر .

¹ S ; I ; H ; M portugais ; tpme : I ; P:180- 181-182-183

² ibid ; tpme : III ; P:417

³ ibid ; tpme : II ; P:359-360

⁴ بورشرب (أحمد)، دكالة والإستعمار البرتغالي، م. س.، ص. 471، وهذه الرسالة عبارة عن وثيقة توجد بدار الوثائق

⁵ م. ن.، ص. 480

فحين عرفت أسفي سنة 1526 نوعا من الإضطراب، كان
للصوص يهاجمون اليهود، ويخطفون الأردية من أظهرهم.¹

كما كان اليهود معرضين خلال الأزمات إلى ضغوط المخزن
لتمويل نفقاته بحيث أصبحوا يبحثون بكل الوسائل عن تجميع مبالغ
الضرائب الثقيلة من السرقة والنصب وغيرها.

بينما قتل مايير ليفي الذي كان تاجرا بأسفي على يد محمد
الشيخ بسبب إفشائه لبعض المعلومات إلى حاكم سانتا كروز
البرتغالي سنة 1541.²

على رغم العلاقة التي كانت تربط اليهود بالبرتغال وكل ما
قدموه لهم من خدمات لم يكن اليهود يفوتون أية فرصة للاستفادة من
الأشخاص الذين يخدمون مصلحتهم من المسلمين مثلا.

فقد كان أبراهام بن زميروا وهو يفاوض الشريف السعدي يعمل
على الحصول على امتيازات تجارية بمراكش ويتقرب إليه بتبذره
له بقرب موعد إنتصاره.³ وبالتالي كانا يلعبان على الربح من
الطرفين .

توضح رسالة مؤرخة ب5 شتنبر 1542 أن سيماوكوريا يطلب
من الملك أن يجعل "دون رودريكو" وإسحاق بن زميروا يعملان
على جعل أهل أسفي يعينون سيدي ميمون قائدا، فتكليفهم بذلك
سيزيدهم إعزازا وفخرا وبما أنه صديقهم فسوف لن يجدوا صعوبة
في منحه شكيمة الخدمة⁴

وقد ظهرت قوة وشهرة أسرة بن زميروا في المدينة
وخارجها ونال أبراهام كبيرها رضى القبائل وقبول الشريف له
كوسيط للتفاوض.⁵

¹ S : I ; H : M portugais ; tpme : II : P:391

² ibid ; tome : I : P:366- 653-655

³ باكوري(محمد)، اليهود في عهد الدولة السعدية، م، ب، ص، 75.

⁴ دي طوريس (بيغو)، تاريخ الشرفاء، م، ب، ص، 125.

⁵ S : I ; H : M. port ; tome : I ; p : 348-350-356- 359-360 367

كما كان أبراهام بن زميروا وهو يفاوض الشريف السعدي يعمل على الحصول على امتيازات تجارية بمدينة مراكش مقابل عمله وقد فضح بعض السجناء البرتغاليين مخططاته بأسفي.¹

أما السعديون فقد قدروا جيدا الخدمات التي قدمها إبراهيم بن زميروا الذي حصل من مولاي أحمد الأعرج على إعفاء من دفع الضرائب على بضائعه.²

على الرغم من معرفتهم طبيعة العلاقة التي تربط اليهود بالبرتغال إلا أنهم كثروا على دراية بمكانتهم وبأهميتها في الحسم في بعض القضايا لذلك كانت علاقتهم جيدة بهم.

ونظرا للدور الفعال الذي قام به بن زميروا في الوساطة نجده في رسالة مؤرخة بـ 3 يناير 1511، يخبر الملك إمانويل أن أهل المدينة في خلاف حول الحكم البرتغالي، وأن من حاصر المدينة بالأمس يطلب الأمان اليوم وأنهم يريدون إرسال اثنين من أعيانهم راجيين وساطة الربّي أبراهام³

كما يخبره بأن عرب "مازكان" (Mazagan) لديهم مقترحات بالخضوع فقد وصل إثنان من أعيانهم إلى أسفي أنفا وينتظرون رد الملك.⁴

يظهر الدور اليهودي في المفاوضات بين مختلف الأطراف سواء داخل المدينة أو خارجها والمثير هو الثقة الممنوحة لهم من قبل كافة الأطراف مما أكسبهم شهرة في هذا المجال.

كان التجار اليهود يضعون مصلحتهم قبل كل شيء، لذلك نجدهم يتنقلون بين المواقع، وخير دليل على ذلك "يعقوب روط" الذي بدأ مترجما بأسفي وانتقل إلى فاس بعد ذلك ليسخر كل جهوده

¹ S ; I ; H ; M portugais ; tome : II ; P: 508

² ibid ; tome I p : 22

³ بالنسبة لكبير بن زميروا فإن اسمه ورد بالصيغتين "أبراهام" و"إبراهيم" في المصادر اللغوية بحسب الأجزاء فاجزء الأول يعتمد بكثرة الصيغة الثانية بعكس الجزء الثاني الذي كثرت فيه الصيغة الأولى.

⁴ S ; I ; H ; M. port ; tome ; I ; p: 2 81

لخدمة الدولة ودعم علاقاتها مع البرتغال وفي نهاية القرن نجده بمراكش من أثرياء اليهود الكبار مما يؤكد أن مكنته لم تتغير في ظل الحكم السعدي.¹

كما ساهم اليهود مع باقي التجار في دفع خمسين أوقية إلى السلطان السعدي مقابل عدم مهاجمته للمحاصيل الزراعية.²

وفي رسالة مؤرخة بما بعد 26 شتنبر 1527 من جون الثاني إلى مولاي مسعود يخبره فيها أنه توصل عن طريق الربيع أبراهام برسائله المتعلقة بالمفاوضات حول السلام معه ومع ملك فاس كما يخبره أن الظروف فقط غير ملائمة وأن ملك فاس يريد إبرام عقد السلام، كما يشكر الملك جون الثاني مولاي مسعود على عرض خدماته عن طريق الربيع أبراهام.³

وقد تولى اليهود الشؤون الدبلوماسية أيضا حيث قام الربيع أبراهام بتسليم رسالة كتبها أحمد العطار إلى الكونت "لينياريس" في 4 مارس 1528 يخبره بتطورات الأوضاع.⁴

في رسالة مؤرخة ب 15 شتنبر 1529 من سيموكونك ادا كوستا إلى جون الثالث، حيث يخبره أن هناك خلافات في سانتا كروز ونعرات وأن الشريف ذهب لمحاصرتها ب 400 مدفعية وأنه منذ وصول سيموكونك ادا سانتا كروز أخبر تاجر من مراكش أن السلام المتفاوض حوله مع الشريف قد تم الحسم فيه بواسطة بن زميروا المفوض من طرف البرتغال.

لكن ذلك السلام لم يتم طويلا بسبب تهديدات الشريف للبرتغاليين واليهود على حد سواء بالقتل لأي منهما تسول له نفسه الدخول إلى حدوده.⁵

¹ S : I ; H : M portugais ; tpme : IV : p : 106 -107 / S : I ; H : M. Angleterre ; tome I p : 232

² ibid ; tome : II ; P: 418

³ ibid ; P: 416

⁴ ibid ; P: 436

⁵ ibid ; P : 482

كما ازدادت مكانة أبراهام بن زميرو لدى البرتغاليين بعد الدور الذي لعبه في عقد هدنة بين مولاي أحمد السعدي والبرتغال سنة 1525 كما ربط علاقات تجارية مع فاس، وقام إسماعيل بن زميرو تاجر أسفي بمهمة إفتكاك الأسرى البرتغاليين لدى السلطان السعدي أحمد الأعرج¹

في رسالة بتاريخ 17-26 شتنبر 1527 من مسعود بن الناصر إلى الكونت دولينهارس تشير الرسالة إلى وظيفة اليهودي كمراسل بين بعض القوى وبين البرتغال حيث يقول فيها : "الحمد لله ... وبعد قد وصلنا اليهودي ولاراينا منكم كتاب و...نحن كتبنا للسلطان جواب مع كتابه مع أبراهام الحزان اليهودي ونحن منتظرين جوابه".²

ويظهر من خلال ما ورد في رسالة من "إيناسيونونيس" إلى يوحنا الثالث 30 ماي 1541، يخبره فيها "أن المغاربة وخاصة الشرفاء يفضون بسرارهم لليهود أكثر من أكبر قائد آخر".³

نخلص إلى القول بأن العلاقة بين اليهود وبين القوى المحلية تميزت بكونها مرة تتم عن حدوث انسجام وتوافق في المصالح وتعايش بين الفئتين وأخرى تتميز بالكراهية والحقد والرغبة في القضاء على الخصم خاصة حينما تضيق دائرة المصالح المشتركة.

2- علاقة اليهود بالبرتغال

لقد دخل اليهود في علاقة مع البرتغاليين على عدة مستويات، نظرا لحجم المصالح التي كانت تجمع الطرفين ببعضهما البعض.

حيث اعتمدت الدولة البرتغالية بعد فشل سياستها الاقتصادية في الثغور الشمالية، على العنصر اليهودي في الثغور الجنوبية، فاستخدام العنصر المسيحي لم يأت بنتائج محمودة. على اعتبار أن

¹ S ; I ; H ; M portugais; tome : II ; P:323-348-371 s

² ibid ; P:412-413

³ ibid ; tome : III ; P: 406

العنصر اليهودي، يتوفر على عدة امتيازات، منها كونه يتقن اللغة العربية وفنون التجارة وما يتعلق بها كما أنه مقبول من طرف المسلمين باعتبار العلاقة القديمة التي تربطه بالمغاربة.¹

وقد وجد اليهود النازحون من البرتغال لدى وصولهم للمغرب ثغورا محتلة من طرف البرتغال لا تسودها قوانين وضغوط محاكم التفتيش، وبها إمكانيات لتحقيق الأرباح عن طريق التجارة². مما سهل التقاء العنصر اليهودي الذي كان يعاني صعوبة الأوضاع بالقوة البرتغالية التي كانت تنبرص للإغتنام من الظروف بكل الأشكال.

فانحاز اليهود بذلك في البداية إلى البرتغاليين وعملوا على تدعيم وجودهم بالثغور المحتلة (أسفي) فقد كان البرتغاليون محتاجين إلى هؤلاء اليهود لتمويل نفقاتهم الدفاعية والعسكرية.

وكذا لخلق رواج تجاري بالموانئ وللاتصال ببني ديانتهم وعمومتهم في الداخل وذلك لتوسيع مجال المبادلات وخلق روابط بواسطة الترجمة والوساطة وبالفعل هذا ما تؤكدته العديد من الرسائل.³

فدولة البرتغال لم تطبق على اليهود في الثغور المحتلة (المغربية) ما طبقته عليهم بالبرتغال من تضيق ومحاكمات حفاظا على مصالحها وعلى العناصر اليهودية النشيطة والضرورية لتنفيذ السياسات العامة البرتغالية في المنطقة.

وقد يعزى كل ذلك إلى عدم استئثار الأهمية التي كان يحظى بها اليهود في عدة مجالات من الحياة، كما قد يعزى إلى عدم قدرة البرتغال في ظل الأزمات على دمج اليهود في الأنشطة على اعتبار

¹ الزعفراني (حفيظ)، ألف سنة من حياة اليهود ص 22، ياكوري (محمد)، اليهود في عهد الدولة السعيدية، ص. 70.

² S ; I : H ; M. port ; tome ; IV ; p : 108

³ المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في تاريخ المغرب الاقتصادي، منشورات كلية الآداب، الرباط، الطبعة الأولى، 2001، ص. 359.

أن الحل هو التوسع خارج مجال حدود الدولة وأن الحل هو طرد اليهود الذين كانوا يشكلون عبء على الدولة.

كما هرب اليهود من مدينة مراكش بسبب الاضطرابات والفتن ولجأوا إلى أسفي حيث طلبوا الحصول على إذن الملك البرتغالي للإستقرار بها¹

ومن الممكن أن تكون الأسباب أعمق من ذلك ذات جذور دينية أو عرقية أو غير ذلك، حيث يصعب في الحقيقة إرجاعها إلى مسبب واحد أو وحيد .

وإن كنا بصدد الحديث عن يهود مدينة أسفي فتجدر الإشارة إلى أن التاريخ المكتوب لمدينة أسفي² لا يشير لليهود إلا في القرن 14 من خلال علاقتهم مع جزيرة مايوركا وفي القرن الخامس عشر مع البرتغال والمعروف أن حوالي سنة 1480 تخلصت مدينة أسفي من السلطة الوطاسية نتيجة تقلص حكم هاته الأخيرة إلى شمال وادي أم الربيع .

ورغم قيام إمتانويل بطرد اليهود ما بين 1496 و 1497، إلا أنه حاول الإحتفاظ بأكبر عدد منهم بواسطة التمسيح القهري للأطفال وبطرق أخرى، ذلك لكون عدد سكان البرتغال القليل (مليون نسمة) كان يشكل عبء أمام طموحاتها العالمية³، مما أدى بالملك - حين وجد يهودا نازحين ذوو أصول إيبيرية بأسفي - إلى تبني سياسة مختلفة إمتازت بالليوننة، وقد كتب ديمينوو: "قبل أن نحتلها كانت

¹ S : I ; H : M. port ; tome ; III : p: 407-440

² نركز هنا على التاريخ المكتوب حتى لا نعطي طابع الإطلاعية للمعطيات، مستحضراً للنسبية التي تميز المعلومة في انتظار ظهور وثائق أخرى: (اتبية - أركيولوجية).

³ هنا نسجل التناقض الحاصل على عدة مستويات وذلك لأنه ثم طرد اليهود من جهة واضطهادهم، في حين كانت الدولة تحتاجهم حتى وإن كان الأمر يتعلق فقط بتكثيف عدد السكان، حتى الذين ثم طردهم إلى الخارج (الذين لم يقبلوا التمسيح) وجد البرتغاليون أنفسهم في حاجة إليهم في البلاد المحتلة، مما جعلنا فعلاً نطرح السؤال حول طبيعة هذه العلاقة المعقدة التي جمعت الطرفين

مدينة أسفي تضم عددا كبيرا من القرى وكان هناك أكثر من 4000 نسمة بالإضافة إلى وجود 400 منزل يهودي¹

وهذا رقم كبير استنادا للفترة نتساءل عن صحة الأرقام، استحضارا لكل المعطيات الأنفة الذكر والمتعلقة أساسا بوجود عدد قليل من الجماعة اليهودية بالمدينة .

وجد التجار اليهود إقبالا وتقديرا من طرف كل الدول والكيانات السياسية بالمغرب حسب ما تفصح عنه أغلب الوثائق في المصادر الدفينة، فالبرتغاليون قدروا جدا خدمات عائلة بن زميروا وخاصة أبراهام وابنه روط²

وبذلك قام الملك البرتغالي بنهج سياسة مختلفة عن التي نهجها بالبرتغال تجاه اليهود وذلك نظرا للظرفية الجديدة التي تحيط بتواجدهم في مدينة أسفي، - وكذا من منطلق البركمانية التي دفعت هذا الملك إلى تغيير المعاملة.

والتي أدت به سنة 1510 إلى منحهم حق الإقامة في أسفي في الحاضر والمستقبل وتعهده بالآيتم طردهم ضدا عن رغبتهم أو إرادتهم وكفل لهم حرية التدين بعدم إجبارهم على الدخول في المسيحية حتى إذا قرر أحدهم اعتناق المسيحية فيجب أن يلتزم بالعيش في شريعته إلى أن يتم تعميده .

وإذا صانف وقرر الملك ترحيلهم عن المدينة لسبب من الأسباب فسيتم منحهم أجل السنتين لترتيب أمورهم كما سيتم تأمين أغراضهم أثناء مغادرة المدينة.³

كما منح في نفس السنة اليهودي أبراهام بن زميروا منصب حاخام على يهود مدينة أسفي بعد أن تراجع عن قراره بمنح المنصب لأخيه إسحاق وذلك لما قدمه هذا الأخير ومن معه من خدمات سياسية هامة للتواجد البرتغالي⁴

¹ ليفي (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي، ص. 176-177

² S ; I ; H ; M. port ; tome : II ; p : 371

³ ibid tome : I ; p : 174-175

⁴ ibid ; p : 175

وساهم اليهود في بناء التحصينات الضرورية للدفاع عن المدينة تجاه أي قوى تريد تدميرها لصالح البرتغال وبالمقابل حصلوا على مجموعة من الامتيازات.¹

وقد قدم اليهود خدمات عامة للبرتغاليين والمحليين على حد سواء وتفصح لنا المصادر الدفينة عن أسماء بعضهم كإبن زميروا ومايير ليفي وغيرهم²

كانت الدولة البرتغالية تفوض أبراهام بن زميروا مهمة التفاوض في العديد من القضايا وليس هو لوحده بل أحيانا بعض من أفراد عائلته، كما هو الحال في معاهدة الهدنة الموقعة مع أحمد الأعرج³

وقد ساهم أبراهام بن زميروا بأسفي في توسيع رقعة البرتغاليين كما ساهم أفراد آخرون لا ينتمون لهذه الأسرة في ذلك. كان يهود المدينة الأصليين يؤدون الجزية التي حددت في أوقية أو 320 ريالا عن كل دار⁴

وهنا تظهر المفارقة في التعامل ما بين اليهود الأصليين الذين لم تكن لهم نفس العلاقة بالبرتغال وما بين اليهود النازحين، فقد أعفى النازحون من أداء الجزية مقابل الأعمال التي كانوا يقدمونها في حين كانت طبيعة بعض اليهود الأصليين ومستواهم مقارنة بأبناء عمومته يحول دون انخراطهم في علاقة من نفس النوع.

كان أبراهام بن زميروا يمضي باسم البرتغاليين نظرا لمكانته باعتباره أهم العملاء، حيث إستقبله الملك إمانويل، في زيارته للبرتغال.⁵

¹ Rozenberger ; les juifs au maroc ; hesperis -Tamuda ; Rabat ; 1999 p : 138-144

² S ; I ; H ; M. port ; tome : IV ; p : 609-612

³ ibid ; tome ; II ; p 345-348-350

⁴ ibid ; tome ; I ; p : 175

⁵ ibid ; tome ; I ; p :

كما كان يهود أسفي نظرا لعدة اعتبارات تدخل في سياق الأحداث وحتى لا نحيد عن صلب الموضوع، مغايرين في أسلوبهم عن يهود بعض المدن الأخرى¹

وتعددت العلاقات التي ربطت اليهود بالبرتغال ما بين العلاقة السياسية والاقتصادية والعسكرية فأتثناء حصار القبائل لمدينة أسفي سنة 1510 وصلت النجدة من البرتغال ومن جزيرة ماديرر نفسها التي أوفد إليها رسولا في هذا الصدد، فحدد لكل واحد مركزه منذ بداية الحصار وسلح اليهود بقيادة رئيسين منهم، هما: إسحاق بن زميروا (بن زمرة) وإسماعيل وبعد أن قام بالترتيبات والأشغال التي يقتضيها الدفاع عزم على انتظار الهجوم وبعد مرور سبعة عشر يوما من الحصار ومقتل ستة آلاف مغربي² في هجومين، انسحب المحاصرون ... ولولا التدخل اليهودي لكانت الهزيمة أكبر.³

كما كان يقدم اليهود بالإضافة إلى العمل العسكري معلومات وأخبار عن المنطقة، نظرا لطبيعة الأنشطة التي كانوا يمارسون، والتي كانت تسمح لهم بالحصول على عدة معلومات ففي سنة 1511 أخبر فيرناند يس دي أتايد من لدن جواسيسه أو مخبريه - اليهود- بوجود خمسة وعشرين دوارا، على بعد فرسخين من مدينة دكالة⁴ وإن كان يظهر أن هذه المعلومة بسيطة، إلا أنها تحمل في طياتها العديد من المعطيات

والمتمثلة في ضرورة عمل البرتغاليين على الحصول على ولاء هذه القبائل ودعمها، وعلى موارد مالية ..، أو استشراف حجم الخطر الذي تشكله على التواجد البرتغالي وبالتالي الإعداد له

وقد أظهر اليهود في أغلب المواقف ولأنهم ودعمهم للتواجد البرتغالي فأتثناء حصار الشريف الأكبر لمدينة أسفي وبعد إنسحابه

¹ كلربخال (مارمول)، إفريقيا، م. ب.، ص. 73.

² رقم ضخم لعدد الضحايا الذين سقطوا في المعركة على اعتبار خصوصيات المرحلة ولابد من التشكيك في مصداقية الرقم، إلى أن يتثبت العكس.

³ مارمول، إفريقيا، م. ب.، ص. 75-76.

⁴ دي طوريس (ديبيغو)، تاريخ الشرفاء، م. ب.، ص. 16.

منحرا وصلت إلى الميناء بعض السفن الشراعية، التي كانت قد خرجت من أزمو حاملة بعض المحاربين .

وذلك بغرض مهاجمة المدينة بقيادة يهودي هو "صماويل فالانسيانو" - كان يتميز بالشجاعة والحذر - ولما وصل إلى المدينة وإلى الميناء ورأى الرايات فوق السور قال لرجاله إن المدينة قد تكون محاصرة فأنزلهم إلى البر ودخل إلى أسفي وكان ذلك أول مدد توصلت به المدينة .

سرّ به الحاكم والجنود كثيرا إذ كانوا يعرفون بسالته وما كند اليهودي يدخل المدينة حتى عمل على إستطلاع خنادق الأعداء .

ولما لم يكن بإمكانه التطلع إليها من أعلى السور أبى إلا أن يذهب إليها بنفسه وأمر بفتح باب الحصن وكان يسمى "باب الرهبان" بعد أن نصب فوقه أربع قطع من المدفعية

واختار مائة رجل من الجنود بأسلحتهم وبأيديهم قتال نارياً، خرج ففاجأ المغاربة وأمر بأن تقذف عدة قتال على أكواخهم المبنية بالأغصان حتى أحرقت وأحرق معها من المغاربة الكثيرون كما قتل اليهودي وجنوده النازحون من المعركة¹

ولم يكن المغرب استثناء في نوعية العلاقة التي كانت تربط بين اليهود والقوى الايبيرية بل حتى في الجزائر، وكأنها تعاقبت معها على القيام بأعمال محددة حيث يصف السليماني نوعية العلاقة التي كانت تربط بينهما بقوله: "لما كانت سنة 911 إستولى الإصبهان على مدينة وهران بمداخلة يهودي في أيام أبي قلمون الزياتي، ونكبوا أهلها ما بين قتل وأسر وذلك عند هزم دولة بني زيان وثقتهم بمسلمي اليهود المهاجرين إليهم من بلاد الأندلس".²

¹ دي طوريس (ديبيغو)، تاريخ الشرفاء، م. ص.، ص 83، يشوب هذه الرواية تناقض حاصل في أقوال "دي طوريس" حيث يخبر بأنه (أي اليهودي) قتل ثم بعد ذلك يقول "....." وانسحب اليهودي والمسيحيين إلى أسفي دون أن يفتقروا رجلاً واحداً ولما رأى الشريف بسالة المسيحيين قرر العدول عن ذلك.

² السليماني (عبد الله)، اللسان المغرب عن نهالت الأجنبي حول المغرب، مطبعة أمنية، الطبعة الأولى، الرباط 1971، ص. 87.

وكان اليهود أصبحوا بمثابة اليد اليمنى لهم في مختلف التخصصات، لطالما كان إمتهان اليهود للنشاط التجاري (باعتباره الممول للتواجد البرتغالي بالمغرب) دائما يؤرق مضجع الساكنة، خاصة ما يخص الجانب الأمني فقد كانوا يحتلون الملجأ والنقطة المستهدفة وقت الفتن مما جعلهم يربطون علاقات حميمة مع البرتغاليين الحامي بالنسبة لهم .

وقدّم كل ذلك حرصا على ضمان ولاء اليهود وعلى مقامهم بأسفي تخوفا من إنتقالهم إلى صفوف المغاربة. وهذا ما يوضح طبيعة العلاقة التي كانت تربط يهود أسفي بالبرتغال فرغم كل ما يظهر فإن الحذر والحيطه ظلت حاضرة¹

كما عمل اليهود على ترسيخ التواجد البرتغالي في المدينة عن طريق إمتهان عدة وظائف أخرى إذ احتاج البرتغاليون إلى مترجمين كوسطاء بينهم وبين المغاربة فقد عمل ابن أبراهام بن زميروا " يعقوب روط " الذي كان مترجما بأسفي في البداية لصالح البرتغال وسخر جهوده كلها لذلك².

وحظي اليهود بثقة الطرفين (البرتغال، المغاربة) حيث كان أبراهام بن زميروا يفاوض السعديين من قبل البرتغاليين من أجل عقد الهدنة بين الطرفين ومن أجل تحديد القبائل التي يجب أن تدفع الضرائب لهم³.

ولطبيعة العلاقة التي جمعت الربّي أبراهام بن زميروا بالبرتغال كما توضح رسالة بعث بها نونيودي أتايد إلى إمتنويل الأول بتاريخ 5 ديسمبر 1510 والتي يخبره فيها بأن أسفي ستتم محاصرتها لا محالة وأن الربّي أبراهام رغم علمه بذلك إختار المكوث بها عن طواعية⁴

¹ S : I : H : M. port ; tome ; I : p : 174

² ibid ; tome ; IV ; p : 609-612

³ ibid ; tome ; II ; p : 323-324

⁴ ibid ; tome ; I : p : 230

فالخطر هنا لم يمنع ابن زميروا من التثبيت بالاستقرار حفاظا على مصالحه بالمدينة، لم يكن البرتغاليون يعتمدون على اليهود فقط بل اقتضت استراتيجيتهم تنويع مصدر المعلومة فتم الاعتماد على بعض القواد المحليين للمدينة والضواحي من منطلق الشك في الطرفين معا من جهة ومن جهة أخرى الرغبة في معرفة الحقيقة¹

تكشف رسالة أخرى بتاريخ 3 يناير 1511 بأسفي هي الأخرى عن العلاقات المتينة التي تربط الطرفين من الربى أبراهام بن زميروا إلى إمانويل الأول يخبره فيها بأن أهل المدينة في خلاف حول موضوع الحكم البرتغالي وأن الذين استنجدوا بقبائل الجهة والذين جاوزوا لمحاصرة المدينة لمدة شهر بعد هزيمتهم طلبوا الأمان الذي رفض دي أتايد منحهم إياه².

كما أرسل الربى إلى الملك يخبره بمشروعه وبأحداث أسفي وقد بعث بأخيه للملك كما يعلمه بأن "دييغودا ألكاصوفا" (Diogo da Alcaçova) على علاقة جيدة مع الأهالي وأنه سيتكفل بطرد مولاي زيان إذا أراد الملك ذلك³

في رسالة بتاريخ 12 أكتوبر 1512 بأسفي من الربى أبراهام بن زميروا إلى الملك إمانويل الأول، يخبره فيها أن ملك مراكش أعلن الجهاد بجهة الأطلس وبدرعة حشد كتائب البربر والعرب من نواحي مراكش وأن مخططه القضاء على مسيحي أسفي.

قام أتايد بإرسال رسالة إلى جواودي مينسيس بأسفي بتاريخ 28 مارس 1514 يطلعه فيها على خبر وصل إلى علمه من يهودي وهو رحيل 8 دواوير كان شيخها هوسيدي عبد الله والذين تركوا نواحي المدينة من أجل اللحاق بالعرب الذين كانوا ينتظرون ملك فاس أوقياده⁴.

¹ ليفي (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي، م، من، ص. 177.

² S ; I ; H ; M. port ; tome ; I ; p : 265

³ ibid ; p : 281

⁴ ibid ; p : 512

كما أن أتايد أرسل فرقا برتغالية لإغاثة المحاصرين وأن
العدوأي ملك مراكش لم يتجرأ خلال ثمانية أيام على مهاجمتهم
وأن أتايد أدخل كل البرتغاليين إلى أسفي برجوعه إلى المعسكر
باستثناء نونويوباريكا (Nuno Barriga) وخمسون قاذفة والتي
دخلت بدورها بعد يومين من خلاف يحي أوتعفوت والعرب .

وقد تمكن أهل الغربية أثناء هجومهم على ملك مراكش من
الاستيلاء على خيمته وعلى غنيمة مهمة، كما يخبره أن يحي لا
يصلح للقيادة في أسفي ويعلمه بتصرفاته الغير اللائقة والتي يجب
أن يعاقب عليها.¹

يوجد بذكرات أبراهام بن زميروا بأسفي المؤرخة ب11
شتمبر 1514 أخبار عن الخروقات التي يقوم بها يحي أوتعفوت "
إذ منذ تعيينه يتصرف كامير أوحاكم وهويقول بأن الملك البرتغالي
سيترك أسفي وأن اغتيال عبد الرحمان كان خطأ كبيرا وأن إحتلال
أوغزوالبلاد من طرف المسيحيين هوالعقاب وأنه يعمل (يحيي)
على استيراد حكم أوهيمنة المسلمين² ..

وأنه إذا كان يتفانى في خدمة العرش البرتغالي فلأجل إشعارهم
بالتفقة واستدراج القائد والنبلاء في إرساليات من أجل التمكن منهم.

يضيف أنه عندما حل ملك مراكش بنهر أكوز قال الكثير من
المغاربة أنه قام بخيانة المسيحيين وأنه كان يتراسل سرا مع ملك
مراكش، بعض الرسل في "أزدور" إعترفوا أنهم حملوا إلى يحي
رسائل ملك مراكش وشيخ أغمات الرامية إلى تنظيم الحرب ضد
البرتغاليين خلال المعركة ففرّ يحي مع أهل الغربية .

كما قام بتحرير 500 سجين من درعة دون إذن من الحاكم
وأقنع أهل الغربية بعدم أداء الضريبة المفروضة عليهم من ملك
البرتغال وزعم أخذها لنفسه.³

¹ S : I ; H ; M. port ; tome ; I ; p : 356

² ibid ; p : 619

³ ibid ; p : 620

عين بنفسه القياد، كما لو أنه الملك ووجد في المدينة مواجهة لمخططاته وعين فيها قائدا من طرفه وأخذ مداخيلها كملك

يخبره كذلك أن يحي جاء إلى "زرك" مرسولا من طرف القائد من أجل تحصيل ضريبة المدينة مخالفا الأوامر المعطاة وهناك ألزم سكان المدينة بالهجوم على المعسكر المسيحي الذي كان بصحبته وأنه عند دخوله المدينة أعلن نفسه ملكا، كما قام بقتل دارديروا - التاجر البرتغالي- الذي استنجد بملك البرتغال.¹

يخبره أيضا أنه من حرص سيدي عامرة السبيطي من أجل الذهاب لمهاجمة البرتغاليين في مركان .

ويضيف أبراهام في سلسلة الخروقات التي يقوم بها يحي أنه قتل عبد الجليل (قائد 10 قرى من دكالة) لأنه لم يكن قد عين من طرفه ولكن من طرف الملك ولأنه أخبره أيضا أنه كان يحتفظ لنفسه بالمداخيل التي يجمعها من حصّة أخرى مستحقة للملك

كما أنه قام بنهب وسلايس وقرى أخرى رغم أنها كانت تحت حماية الملك²

قام بمهاجمة أهل الشرقية وذلك للحصول على ولانهم، وكان قد قرر الذهاب عند الشياظمة تحت ذريعة إعلان الحرب على الشريف، وأنه كان يسيء معاملة الناس الذين يولون الطاعة للحاكم يتضح من خلال هذه الرسالة التي تضمنت زخما من المعلومات المرتبطة بعدد من النقاط الحساسة، انه منح لليهود حق التصرف بكامل الحرية في اتخاذ القرارات صغيرة كانت أو كبيرة.

ولم يكتفوا بذلك بل كانوا يشون حتى بالرعايا والعمال البرتغاليين التابعين للدولة.

وكان يتراسل مع المغاربة قائلا لهم أن طريقته في التعامل مع المسيحيين لم تكن سوى من أجل أن يدفعوا مقابل الأذى الذي كانوا

¹ S : I ; H ; M. port ; tome : I ; p : 621

² Ibid ; p : 620-621

قد تمسبوا به للمسلمين وهذه طريقة ذكية في شرح الوضع الذي من الممكن أن يؤولب الساكنة عليه

توجد بين يدي الربى أبراهام رسالة من شيخ أغمات يشكر فيها يحي على ما فعله في قضية أكوز عندما حرر السجناء، قائلا أن يحي كان يخدم المسيحيين لخياتتهم¹

يطلب أتايد في رسالة بتاريخ 12 شتنبر 1514 بأسفي من إمانويل الأول، أن يرسل له سليمان بن زميروا الموجود بالبرتغال، كما أخبره أن يرسل رسائل شكر لـ (عبدة، سجة، الغربية) على موقفهم ضد يحي لمكاتبة القائد دون علمه².

وفي رسالة أخرى بنفس التاريخ يخبر أتايد فيها أن يحي قام بقتل سيدة وقتل عبد الجليل واليهودي موسى درديرو وكان يريد قتل سليمان لكن إسحاق بن زميروا أرسل يحي إلى أسفي لأن يحي سيقتل أتايد أو العكس³ خوفا على حياة أتايد.

في رسالة مؤرخة ب 25 يناير 1515 من ألفارودي أتايد إلى إمانويل الأول بأسفي، يخبره فيها أن ملك فاس يتحضر من أجل المجيء للمنطقة وأن مغاربة ويهود قادمون من فاس ومراكش يؤكدون ذلك بما لا يدع مجالا للشك وقد أخبروا أبناء عمومته بذلك في أسفي ويقولون أيضا أنه سيأتي بفرق وأسلحة ومعدات غير مسبقة وأنه يتوجب على ملك البرتغال أن يبعث بالإمدادات التي .. ستجعل من الممكن القيام بعمليات دفاعية⁴.

توضح رسالة أخرى بتاريخ 26 شتنبر 1527 من يوحنا الثالث إلى مولاي مسعود: أن الربى أبراهام بن زميروا قام بإيصال رسالة مولاي مسعود إلى الملك البرتغالي والمتعلقة بالمفاوضات حول السلام معه ومع ملك فاس⁵.

¹ Ibid t : I ; p : 621

² Ibid t : I ; p : 630-631

³ Ibid t : I ; p : 658

⁴ Ibid t : I ; p : 678

⁵ Ibid t II ; p : 416

في رسالة مؤرخة ب 3 مارس 1527 من جون الثالث إلى شخص مجهول ما يشكره فيها على رسالته التي حملها له الربى أبراهام وسعيد لرؤيته مستعدا للسلم ولكن المشاكل التي طرأت بمملكة فاس تمنعه من إتمام الصفقة حاليا¹.

قام "سيماوكونكا فيسدا كوسطا" بإرسال رسالة بتاريخ 15 شتبر 1529 إلى جون الثالث في سانتا كروز يقول له فيها أن عائدات التجارة (التي كن يتحكم بها اليهود) تفيد في تعزيز التحصينات البرتغالية وأن إذا لم يبيع التجار اليهود سلعهم في المناطق الداخلية، لن يتمكن من تنفيذ الاتفاق مع الملك وبالتالي كل تلك الأماكن القوية التي تعتمد على عائدات هذه التجارة ستسوء حالتها وستتهجر².

وجاء في رسالة "إيناسيونونيس" إلى جون الثالث بتاريخ 30 ماي 1541، أن سليمان بن زميروا يخبره أن الشريف كان يرمي إلى إيجاد قلاقل وتمردات ضد ملك فاس وبعد استقراره بالشاوية مع 4500 فارس تراسل طوال الوقت الذي بقيه مع أخ مولاي إبراهيم³.

في رسالة من الساكنة إلى إمانويل الأول بتاريخ 2 يوليو 1509 باسفي يخبرونه بانتهاكات العامل دازامبوجا (الدازنوبج) وتسامح اليهود والنصارى معه "فلا رأينا من عاقب عاملك ديوغ دازمبوجا على ذلك من المسلمين ولا من النصارى ولا من اليهود....."⁴

يتضح أيضا أن الساكنة هي الأخرى كانت تعي حجم المكائنة التي منحت لليهود في بعض المناصب الإدارية حتى أنهم كانوا ينتظرون أن يتدخل اليهود لتوقيف تصرفات دازامبوجا.

¹ Ibid t; II : p :434

² Ibid t; II : p : 482

³ Ibid t ; III : p :406

⁴ Ibid t; I : p : 183

ورغم ما تعهد به الملك البرتغالي إمانويل إلا أنه لم يكن يفي بكل تعهداته ولم يكن مسئولوه ينفذون كل أوامره فقد عبر عن رغبته في تخفيض أعداد يهود أسفي وثم ذلك بالفعل فقد طرد عددا من الأسر سنة 1519 دون وجود لمبرر ودون أن يستفيدوا من أجل السنين الذي قيل عنه من قبل¹

ولم تكن العلاقة بين يهود المدينة الأصليين واليهود النازحين علاقة جيدة فهم من ثقافة مختلفة ولم يحصل بينهم إنسجام لذلك تضرر التوباشيم من الاحتلال وويلاته (الضرائب، انعدام الاستقرار، الإهانات ...)

وهؤلاء اليهود كانوا من اليهود الأصليين - كما سبقت الإشارة - الذين كانوا يرزحون تحت الفقر وكان يسري عليهم الوضع العام، لأنه لم يكن يستفاد منهم بالنسبة للبرتغاليين بل كانت تفرض عليهم ضرائب.

وكان برتغاليو أسفي يعاملون بعض اليهود معاملة سيئة خصوصا في فترات الأزمة أو الجوع حيث كانوا أول الضحايا.²

سعت الأسر الكبرى منذ أول الأمر إلى ولاء البرتغاليين فقد عاشت في رغد وخير جعلها لا تكثر حتى للفتنة الأخرى، على الرغم من أن أبراهام كان حزاناً، فقد انطبع عنه أكثر من دوره التجاري والسياسي داخل وخارج المدينة، دون أن تكشف النصوص بين أيدينا عن باقي أدواره إن كانت له أدوار إجتماعية مثلا في علاقته بباقي اليهود في المدينة.

ظل العرش البرتغالي يعامل طبقة اليهود المنتمية للأسر الكبرى معاملة جيدة على الرغم من تورط بعض أفرادها في بعض القضايا كالمضاربات على حساب الجنود مثلا.³

¹ Ibid t; II ; p :222-506

² Ibid t; II ; p :372

³ بنكرعي (حليمة)، ترجمة وثيقة برتغالية، القنطرة، 2005، ص 125 / وميمون : شخص ورد في كتاب الوزان، وصف إفريقيا، ص. 153، 152 أنه كان يتصح الناس بلاء الخراج للبرتغاليين "وقد نقلهم ملك فاس إلى مملكته حنرا من البرتغاليين ! بلغه أن شبحا رهبنا لغريق من المدينة (قربة قريبة من دكالة)، وقد رأيت هذا الشيخ حافي القديمن مقبدا فالتفت عليه كثيرا لأن المسكين كان مضطرا إلى أن يفعل ما فعل".

وليس التوباشيم من تضرر فقط لوحدهم بل حتى الميغوراشيم
اشتكى بن زميروا من ملك البرتغال أنه لم يعد يفي بتعهداته تجاهه
في رسالة بتاريخ 14 أكتوبر 1529 من أنطونيولييطا إلى جون
الثالث¹

كما كتب القبطان ليطاوسنة 1530 إلى الملك جون الثالث
يخبره أنه لا يجب أن يسند اليهود قضايا حساسة مثل الاستعداد
لغزوالمغرب وإعتبرهم لا يفكرون إلا في أنفسهم ومصالحهم
وذلك بعد أن تقوت شوكة كبار اليهود²

وعلى الرغم من كل هذا وفي سنة 1519 قام الملك إمانويل
وبعد نهجه سياسية المكايسة مع يهود المنطقة بتغيير أرائه تجاههم
فقام بطرد عائلات يهودية من أسفي بدعوى عدم صلاحيتهم وكان
ذلك في نهاية عهده وإستمر نفس الموقف في عهد خلفه
جواو الثالث³.

كان إمانويل وابنه وخلفه جواو الثالث "متمزمتا" وشديد العداء
للإهود⁴ وقد أمر عامله على المدينة نونيولا يسمح بالخروج من
المدينة لأي مسلم ولا يهودي ممن كانوا قد جنزوا برخصة حاملين
معهم بضائعهم⁵

ولما كان الوجود اليهودي ضروريا للبرتغاليين في الثغور
المغربية ورغم كل ما قدمه الملك البرتغالي إمانويل من ضمانات
تكفل وتضمن لهم حرياتهم فقد كان يرادهم الخوف من انتقال
محاكم التفتيش إلى المغرب ومن تجديد المعاناة مرة ثانية، لذلك
كانوا شديدي الحرص على الحصول على ضمانات لأنفسهم
وأموالهم وقد استجاب لهم الملك البرتغالي من قبل .

¹ Ibid t ; II ; p :491

² Ibid t; II ; p 50

³ Ibid t; II :p : 224

⁴ بوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي، م. س، ص. 190 .

⁵ دي طوريس (دييغو)، تاريخ الشرفاء، م. س، ص. 17.

خاصة حينما اجبر اليهود على أن يدفعوا سنة 1514 ثلاثمائة وعشرين ريالاً في السنة عن كل منزل مقابل تمتعهم بحماية الدولة البرتغالية¹

على الرغم من كل ما يظهر إلا أن الدولة البرتغالية كانت تأخذ ببسارها ما قنمته يمينها، حيث عملت على استغلال مختلف الأوضاع لصالحها

فحاول عدد من التجار البرتغاليين أو اليهود ذوي الأصل الإيبيري الانفلات من هيمنة الدولة البرتغالية بوسائل متعددة، من مثل الحصول من الملك البرتغالي على بعض الاحتكارات كما هو الشأن بالنسبة لأبراهام بن زميروا كما لجأ البعض منهم إلى الاتجار في المواد المحرمة من طرف البرتغاليين كالأسلحة والصلح المحتكرة من طرف الملك البرتغالي ومن هؤلاء التاجر البرتغالي: "دومينغولورنصو"²

وعندما خرق البرتغاليون الهدنة التي أقاموها مع السلطان السعدي واشترط تعويض القافلة التي نهبها لإعادة الصلح، فرض القبطان البرتغالي ضريبة خاصة على اليهود التاجر لدفع هذا التعويض³

هذا مظهر آخر للاستغلال فقد اعتبر اليهود على مدار العديد من مجريات الأحداث التاريخية مصدراً للأموال في فترة الأزمة سواء في بعض الفترات التاريخية في المغرب أوحى في أوروبا نموذج البرتغال على اعتبار مختلف الأنشطة التي كانوا يزاولون والتي كانت تسمح لهم بمراكمـة "ثروات".

لقد كان لليهود في الثغور محاكم خاصة إلا أنهم كانوا يتعرضون أحياناً مثل المسلمين لتعسفات البرتغاليين خاصة اليهود الأصليين. فنظرة المستعمر واحدة (للمغاربة وللـيهود)

ويقول ليفي شمعون بأن الذاكرة الشعبية اليهودية لا تتذكر الإحتلال البرتغالي ولا حمايته للأولياء وبالنسبة لها أولاد بن

¹ Ibid t; II : p :391

² Ibid t;II : p :475

زميروا السبعة "ما هم إلا نساك كانوا يتدارسون التوراة بالليل
فابتلتهم الأرض" ¹

يظهر من خلال هذه الشهادة أن الذاكرة الشعبية ألغت جوانب
من الأحداث التي جرت "العلاقة بين اليهود والبرتغال" وحماية هذه
الآخيرة لهم حسب ما تفيد المصادر الدقيقة إلا أنها استحضرت دور
الجانب القنسي الديني الذي لا يزال يعرف به هؤلاء الأولياء إلى
يومنا هذا.

3- أنشطة ووظائف اليهود

أ- التجارة

رافق الغزو العسكري لسواحل السهول الغربية، ولمدينة أسفي
بالخصوص، غزو تجاري كبير كانت له نتائج وخيمة على أوضاع
البلاد الإقتصادية، تولدت عنه تلك المكانة التي كان المغرب يحتلها
داخل الإمبراطورية التجارية البرتغالية ².

حيث بدأت الاتصالات غير الرسمية بين البرتغال والمغرب
منذ القرن 15، وقبل إحتلال أزموور وأسفي قد هم عدد من التجار
البرتغاليين الذين كانوا يزاولون التجارة مع ساكنة أسفي وأجروا
الاتصالات مع بعضهم لبناء دور التجارة مهدين بذلك للإحتلال
البرتغالي ³

فلا بد أن يرتبط الاستعمار بما هو اقتصادي بدرجة أكبر، ومن
الطبيعي أن يعمل الإحتلال البرتغالي على تعبيد الطريق أمامه في
المستعمرات الجديدة

وأضحى الجنوب المغربي يمثل في نظر البرتغاليين منطقة
أساسية ليس فقط لكونه منطقة إنتاج وتصدير لعدد من السلع التي
كانوا يرغبون في الحصول عليها كالقمح ولكن لكونه أضحى يلعب

¹ ليفي (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي، م. س، ص. 183 - لا بد من الإشارة إلى
أنه من الصعب تبني أطروحة معينة في التحليل تبعاً لتنوع مصادر المعلومة وصعوبة
الحسم في موضوعيتها

² بوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات م. س، ص. 181.

³ S : I ; H ; M : tome ; Iv: 144

دورا أساسيا في مبادلاتهم التجارية مع سكان غرب إفريقيا وانعكست هذه الأهمية التجارية التي أصبح الجنوب المغربي يكتسبها على السياسة التي انتهجوها به للتحكم فيه¹

وقد اهتم البرتغاليون بمدينة أسفي لإعتبارات ذكرت فيما سبق وكانت أهم الشروط التي أكتت عليها المعاهدات الممضاة مع المغاربة، ضمان سلامة التجار وإعفاء التجارة الملكية من الضرائب²

مكنك الأنوار الإقتصادية التي لعبها اليهود في العديد من المدن كأسفي من السيطرة على الشؤون الاجتماعية للفئة وللساكنة على حد سواء كما هو الحال بالنسبة لليهود أسفي (عائلة بن زميروا)³.

وقد ساهم اليهود الذين إستقروا في الثغور البرتغالية في عدة مشاريع إقتصادية - مثل يهود أسفي وأصيلا - والتي تنتمي أصولهم في الغالب إلى البرتغال بشكل بارز مما جعل مثار الحديث في هذا الجانب ليس في الأرشيف البرتغالي وحسب بل حتى في الأرشيف الهولندي في فترة لاحقة⁴.

إذ لم تقتصر العلاقة في جانب دون آخر واعتبارا للحساسية التي اكتسبها الشق الاقتصادي وأهميته في التواجد البرتغالي

واستفاد يهود أسفي من تخفيض قيمة الضرائب والإعفاء على السلع المجلوبة من البوادي كما منحت لهم حرية إخراج السلع برا إلى أي مكان يودون التوجه إليه وذلك لا يشمل السلع الأتية من البحر حيث بقيت حقوقها قائمة خاصة بالنسبة لليهود الذين ساهموا في بناء التحصينات .

¹ : بوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي م. ب.، ص. 103.
Godinho : L'économie de l'empire portugais aux XV et XVI émé
siècles :paris ; P :

² بوشرب (أحمد)، تكلفة والإستعمار، م. ب.، ص. 157.

³ Eisenbeth: p 37

⁴ باكوري (محمد)، اليهود في عهد الدولة السعنية، م. ب.، ص. 40 - 41

وبرز ثقلهم الإقتصادي واضحا في المدينة حيث كان يوم السبت وهو يوم الراحة بالنسبة لليهود أو هن أواضعف أيام الأسبوع رواجاً تجارياً نظراً لإقبالهم متاجرهم ولما تضرر المسيحيون من ذلك أصبح نفس اليوم بالنسبة لهم يوم راحة¹

ولم يكن التواجد اليهودي بمدينة أسفي حديثاً أووليد كل تلك الأحداث بل كان تواجدا قديماً، حيث يفيد الوزن أن الكثير من الصناع ونحو مائة دار من اليهود كانت توجد بالمدينة عند زيارته لها، ويفصح هذا الرقم عن العدد الكبير لليهود فمائة دار رقم كبير للسكنة.²

فقد كتب "ديمياو" قبل أن نحتلها كانت مدينة أسفي تضم عددا كبيرا من القرى وكان هناك أكثر من 4000 نسمة بالإضافة إلى وجود 400 منزل يهودي وكانوا يزاولون تجارة الذهب والفضة والعسل وشمع العسل والحناء والنسيج والجلد وبضائع أخرى كان يجلبها تجار مسيحيون ومسلمون عن طريق البر والبحر³

وكان ملك البرتغال يجبي موردا كبيرا من الإتاوات ومن دخول البضائع الواردة إلى أسفي فكان المسيحيون واليهود والمغاربة يحصلون على أرباح طائلة على حد سواء⁴

كما كان الملك يحتكر ويمنح إحتكار البضائع التي يريد لمن يشاء، ولا يسمح للتجار البرتغاليين بالإتجار بالمغرب، إلا بناء على ترخيص خاص منه.

فمن خاصيات التجارة البرتغالية إحتكار الملك لها والإعتماد على الوساطة اليهودية نظراً لإتقانهم التجارة وما يحيط بها⁵

¹ Rozenberger : les juifs au Maroc ; Hespress- Tamuda ; Rabat ; 1999 ; p : 137-138-144

² الوزن (السن)، وصف إفريقيا، م، ص، 147.

³ ليفي (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفي م، ص، 176-177.

⁴ مارمول م، ص، 78.

⁵ باكوري (محمد)، اليهود في عهد النولة السعيدية، م، ص، 70.

حيث قام اليهود بجمع الإتاوات التي يؤدونها المغاربة ويحملونها إلى القائد العام بأسفي بإسم الملك وكان أهل عبدة وهم أكابر دكالة يدفعون ألف حمل بعير كل سنة، نصفها قمح ونصفها شعير ويشكل حمل بعير إثني عشر كيل (حنفة) من القمح، وعشرين من الشعير¹

وتشكل هذه الاحصائيات أرقاما كبيرة كانت تؤدي من هذا المجال، مما أدى إلى استنزافه خاصة في ظل تغير الأوضاع المناخية مما سيؤثر فيما بعد على الإنتاج وعلى المجتمع ككل

احتكر العرش البرتغالي لنفسه بواسطة مؤسسات تجارية مختصة كـ "دار لامينيا" (casa da Mina) بيع السلع التي كان إقبال المغاربة عليها كبيرا والتي كانت تضمن الأرباح وترك التجار العاملين لحسابهم الخاص من برتغاليين وأجانب حق الإقبال على الثغور المحتلة شريطة أداء الضرائب الجمركية².

وقد ازدادت مكانة أسفي وأزمور بعد إكتشاف "أشيم ولامينيا" وبداية التعامل مع المناطق المجاورة لهما وبعد أن أصبح الملك البرتغالي يعمل على تغطية ثمن السلع المغربية ببيع سلع يرسلها إلى أسفي وأزمور وماسة، الأمر الذي زاد الرواج التجاري بالموانئ الجنوبية المغربية، فرفع ذلك من عدد التجار البرتغاليين بها .

ونظرا لتزايد إقبال البرتغاليين على السلع المغربية، وتنبههم لطاقة البلاد الإستهلاكية المهمة، إرتفعت الكميات المعروضة إرتفاعا مهولا، فلقد إرتفع عرض التوابل بنسبة كبيرة بين 1498 و1519، في حين إرتفع عرض الصمغ بين 1491 و1519 وعرفت سلع أخرى إرتفاعا كبيرا كذلك، مع العلم أن تجارة الملك التي كانت تمثل أكبر الصفقات التجارية بالمدينة كانت معفاة من

¹ دي طوريس(دييفو)، تاريخ الشرفاء، م.س، ص18-19 / الحنفة تساوي صاعين في فرنسا.

² بوشرب(أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، الطبعة الأولى، دار الأمان، الرباط، 1997، ص.9.

الضرائب الجمركية¹ كما عملوا على جلب جل سلع المناطق الداخلية نحو الموانئ المحتلة .

اشترى البرتغاليون مواد زراعية وحيوانية كاللوز والتمر والشمع والجلود والنفلة والسكر وكان القراصنة الإسبان والفرنسيون يشكلون أكبر مخاوف التجار البرتغاليين، حيث كانوا يتمتعون بجرأة كبيرة فقد استولى قراصنة فرنسيون على مركب برتغالي كان يميناء أسفي² فقد تعرض البرتغاليون لتهديدات من لدن منافسيهم

ووجد اليهود البرتغاليين في الثغور المحتلة فرصة التجارة وجني الأرباح وتلبية بعض الخدمات الأخرى فركزوا جهودهم بها ونقلوا فيما بعد نشاطهم إلى الداخل خاصة بعد الإحتلال البرتغالي³.

برز التأثير الكبير لليهود في المبادلات الداخلية والخارجية للمغرب مع الخارج، كما أسدوا خدمات متعددة ومتنوعة لمختلف القوى السياسية التي عرفها المغرب، ساعدتهم على ذلك إلمامهم بأساليب التبادل التجاري وتقنياته وتمرسهم بالمفاوضات وطرق البيع والشراء وما يرتبط بذلك⁴.

كما كان اليهود يستثمرون ما توفر لهم من مال صغر حجمه أو كبير من أجل جني الربح ويتعاطون لما يعرض عنه التجار المسلمون مثل تقديم العروض بالربا أو الرهن⁵.

وإنضاف تمويل المشاريع المختلفة وتقديم التسييلات المالية الضرورية مقابل فوائد وتموين القلاع والحصون والمدن إلى باقي المهمات التي كان يقوم بها اليهود⁶.

¹ بوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي م.س. ص. 183.

² نفسه، ص. 221.

³ S ; I ; H ; M. port ; tome ; Iv ; P: 108

⁴ Braudel(f) ; la méditerranée et le monde p : 140

⁵ S ; I ; H ; M. Angleterre ; tome ; I ; P: 530

⁶ S ; I ; H ; M. port ; tome ; Iv ; P: 108

وبما ان التجار يحتاجون في عملهم إلى خدمات عدد كبير من المستخدمين والعمال الذين يرتبط عملهم بالمجال التجاري والذين يصعب حصرهم أحيانا وتحديد نوع وطبيعة خدماتهم فقبل أن يصل التاجر مثلا إلى المغرب. يحتاج إلى خدمات البحارة الذين يتعهدون بنقله وحمايته هو وبضائعه وعند وصوله إلى الميناء يحتاج إلى خدمة أدلاء المراكب ثم الحمالين الذين يفرغون السلع من السفن أو يشحنونها ، ثم ينقلونها حيث أمناه المرسى الذين يقومون بجرذها وإحصائها ووزنها كما يحتاج إلى وسيط وترجمان ليكون صلة وصل بينه وبين التجار المغاربة فكان اليهود يقومون بأغلب هذه المهمات¹

كما كان التجار أقدر من غيرهم على مباشرة المفاوضات بين المغرب والخارج بسبب ما أشرنا إليه سابقا من مميزات وصلات تربطهم بكل الأطراف.

ويعتبر اليهود في هذا المجال مفوضين مقبولين من لدن كل الأطراف ومن أهم الأسماء التي اشتهرت في هذا الصدد الربيعي إبراهيم بن زميروا الذي كان يفاوض السعديين من قبل البرتغاليين² وقد احتاج المفوضون في أغلب الأحيان ل مترجمين فكان موسى درنيروا 'مثلا' تاجرا مقيما بأسفي أثناء الاحتلال البرتغالي، وكان يشتغل أيضا مترجما³

في رسالة أخرى بتاريخ 3 يناير 1511 بأسفي من بن زميروا أبراهام إلى إمانويل الأول ينتظر فيها قراره الذي سيمكنه من المفاوضات من أجل إمتلاك أو شراء منزل "دا كافاليرو" (da cavaleiro) وقد بعث بأخيه (إسحاق) إلى الملك من أجل إخباره بهذا المشروع⁴

¹ المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب بالقرن السادس عشر، م.م.، ص. 385.

² S : I ; H : M ; tome ; II : P: 323- 324- 367-482

³ Ibid t: 305-328

⁴ Ibid t l:p 281

كما كان موسى روط ابن أبراهام بن زميروا تاجرا بأسفي وانتقل إلى أصيلا (لظروف ما) لمواصلة نشاطه التجاري بتنسيق مع أخيه يعقوب الذي أقام بفاس، لكنه إعتقل من طرف البرتغال بطلب من محاكم التفتيش البرتغالية إلى أن تم إطلاق سراحه في سنة 1542¹

تدخل التجار البرتغاليين (خاصة اليهود) في الشؤون الداخلية لمدينة أسفي فقد كانت لهم صلاحيات عدة²

بالإضافة إلى إمتهان بعض اليهود الإسبان التجارة حيث وصلت تعاملاتهم التجارية من مدينة أسفي إلى مراكش بل تعدتها وقد تكيفت الجماعة اليهودية لمدينة أسفي وهي 150 أسرة حسب الوزن مع الأوضاع السائدة³

في رسالة من "جاولوبيز" إلى إمانويل الأول بتاريخ 1 يوليو 1510 يخبره فيها أن الإتفاقية التي حصل عليها الربّي أبراهام لازالت على حالها وأنه وعد الناس بالوفاء بتعهداته بعد الحصاد لكنه لم يفي بذلك لذلك فهو يطلب تدخل الملك لإيجاد حل لهذه المشكلة المتعلقة بابن زميروا⁴

وهذه إشارة إلى تحكم كبار اليهود بالمدينة بزمّام الأمور في الشق التجاري في بعض الأحيان، - إذ لا يمكن الجزم بذلك -

ويخبر نونيو دي أتايد في رسالة مؤرخة ب 17 مارس 1511 إلى إمانويل الأول: بضرورة إرسال إمدادات بالمون والنقود لأن المغاربة لم يعدوا يجلبون القمح خوفا من محصول سيئ بسبب التساقطات وذلك ما سينعكس على التجار اليهود المكلفين بتجارة الملك.⁵

¹ S ; J ; H ; M ; tome ; Iv: P: 106-609

² Ibid t I: 138

³ نفسه، ص. 177.

⁴ Ibid t I: p 230

⁵ Ibid t I: p 297

ويظهر بالفعل التخوف الحاصل لدى البرتغاليين من تضرر
التجار اليهود، لأن ذلك سينعكس على تجارة الملك.

وسلم إسحاق بن زميروا رسالة الملك إلى شخص لا تفصح
الوثيقة عن اسمه في رسالة بتاريخ 29 ماي 1512 من
نونيو كاطو" إلى إمانويل الأول يأمره فيها بشراء 3000 مدا من
القمح وقد تكلف هذا الأخير بتنفيذها¹

كما نجد في رسالة من "نونيو فرينانديس دي أتايد" إلى
"جواودي مينيسيس" بأسفي في 28 مارس 1514 رفض
ميمون (تاجر يهودي) تسليم القمح لأولاد سبيطة خوفا من غدرهم²
لم يقتصر دورهم على المتاجرة فقط بل أيضا على دراسة
الأوضاع الاقتصادية واختيار الأنسب ورسم الخطط والعمل على
تنفيذها

ونظرا لطبيعة العلاقة بين اطراف المجال (دكالة - عبدة) ففي
رسالة مؤرخة بـ 15 نونبر 1527 بأزمور من "ميستر رودريغو"
طبيب بأزمور إلى "جون الثالث"، يخبره بما يجري في أزمور
فقد أصبح المكان مجال مجاعة والناس يموتون من الجوع، إذ لم
يجدوا مورد الصيد الذي كان يوفر لهم ما يأكلون . وبالتالي
فهو يستدعي تدخل الملك لإخراج المدينة من الوضع الذي تعاني
منه

والسبب أن ما تبقى لم يكن يدفع في الأجال المنتظمة، وكذلك
لأنه منذ ثلاثة أعوام بعض اليهود أصحاب الضيعات المزارعين³
قد إستفادوا من شرط في عقدهم من أجل سرقة المورادوريس
(les moradores) ثلاث مرات دون أن يشتروا شيئا من الأسواق
حيث أنهم يشترون البضائع بدون مقابل .

¹ S : I ; H ; M ; tome : I : p 311

² Ibid II : p 512

³ هنا يدخل معطى جديد نوعا ما عن نشاطات اليهود فلم يشتهر اليهود قط بامتلاك
الأراضي أو بامتلاك الفلاحة نظرا للخصوصيات التي تميزها (عدم ضمان الربح
والارتباط بالطبقة الطبيعية) ولم يتعود اليهود على ممارسة مثل هذه المهنة.

عندما علم المورادوريس أن الصفقة آلت إلى بن زميروا وأن المتبقيات ستدفع كل 6 أشهر عادت إليهم شجاعتهم لكنهم عندما رأوا أن المزارعين يتسارعون على عرض بن زميروا فقدوا الأمل من جديد¹

ويقوم هذا الطبيب من خلال ما ورد في الرسالة بشرح الأوضاع للملك "جون الثالث"، وذلك بإعلامه بالتجاوزات التي يقوم بها اليهود دون علمه .

كما استمر التجار اليهود في القيام بمعاملاتهم التجارية، بمختلف الأشكال

ففي رسالة مؤرخة ب 6 مارس 1529 بأسفي من إسحاق بن زميروا إلى جون الثالث : يخبره فيها أنه وصل إلى أسفي في 15 يناير وأنه قدم مباشرة إلى الكونتدور (Contador) وإلى العاملين العقد الذي أبرمه مع الملك وقدم ضمانات حسب ما هو منصوص عليه في ذلك العقد والفيطور (feitor) سلم إلى إسحاق البردات التي كانت بين يديه

وتسلم إسحاق من جهة أخرى من " فاستياودا فارغاس" صاحب أومستلم أمر خزينة "لاكاسا دا مينا" (la casa da mina) باقي البردات الموجودة في التسليم الأول

فرغم وصول هؤلاء متأخرين بشهرين لن يتم تأخير الأداء وإسحاق بن زميروا يأمل أن يؤدي لهم المال المتفق عليه قبل التاريخ المحدد

كما كان من بين السلع التي تروج في مدينة أسفي وتأتي من البرتغال المعاطف أو (roupa) حيث كان يتم توزيع كمية كبيرة من المعاطف في أسفي وأزمور، لأن الملك يلتزم أن يمول السوق بتلك المعاطف ولن يرى مانعا في إرسال المزيد إلى أسفي ومزكان.²

¹ S ; I ; H ; M ; tome ; II : p 418

² Ibid t II: p 453

وإن إسحاق سيبدل جهده من أجل بيعها، وإذا توصل بكمية معقولة بما يكفي سيؤدي كل المستحقات الواجبة بأزمور.

وعلى إثر الضرر الذي لحق إسحاق بسبب المنافسة، يشتري "الفيطور" معاطف، وكان الملك قد تعهد في العقد ألا يتوصل أحد بتلك المعاطف إلا من رضى عنده المزداد وأيضا يلتزم هذا الأخير أن يوجد جميع البضاعة التي كان يحتاجها الملك وحتى إذا تجاوز ذلك الكمية المتفق عليها

ولذلك الغرض يطلب إسحاق أن يمنع موظفوا أزمور مباشرة من الشراء، ويبرر سبب عدم حديثه عن القمح الذي توصل به من طرف يحي لأنه لا يوجد بأسفي إلا موثق واحد والذي يوجد حاليا خارج المدينة¹

وتلاحق كل هذه الأحداث لم يكن وليد الصدف، فالحاجة إلى التمويلات كانت ملحة. فقد استغلت عائدات التجارة الممارسة في تعزيز التحصينات البرتغالية في المغرب ككل وفي المدينة بشكل خاص، إذ لابد أن تكون لهذا الاستعمار تكاليف باهضة على المستوى المادي كان على البرتغال تأديتها كما توضح رسالة مؤرخة ب 15 شتنبر 1529 من "سيمافيسدا كوسطا" إلى جون الثالث في سانتا كروز: يخبره أنه أي بن زميروا إذا لم يتمكن من بيع هذه السلع سوف لن يتمكن من تنفيذ ما إتفق عليه في العقد مع ملك البرتغال وبالتالي كل تلك الأماكن القوية التي تعتمد على عائدات هذه التجارة ستسوء حالتها وستنهار مما يستدعي تدخل الملك لرؤية الامر.

كما يخبره أن هناك خطرا يتهدد الثغور في ظل هذه الأوضاع والمعلومات أتية من تجار قانيس الذين يترددون على موانئ الشريف الشئ الذي سيشكل ضررا كبيرا لملك البرتغال وأيضا للرب² وذلك بسبب تهريب الأسلحة التي يقومون به¹

¹ S : I : H : M : tome : II : p 452- 453

² هنا يستحضر الخطاب الديني في الحديث عن مصلح اقتصادية ليكون الوقع والتأثير اكبر، وحتى يتم التدخل بسرعة، المنخل الديني ودوره في اصفاء الشرعية على كل المجالات.

ونظرا للظرفية التي كانت تمر بها الأوضاع وبسبب تأخر
ابراهيم عن الدفع، فقد قام "أنطونيوليطاو" بإرسال رسالة مؤرخة
ب 14 أكتوبر 1529 إلى جون الثالث بأزمور.²

يخبره انه منذ أن ذهب بن زميروا من أزمور فقد قام شريكه
"فرنسيسكو كوميث" بالتأدية عنه سنة 1528 والربع الأول من
1529 حيث أدى عنه الضعف كما طلب المورادوريس من الملك
أن يتفضل بإرسال ابراهيم بن زميروا من البرتغال لتمر الأداءات
المقبلة في أحسن الظروف³

وبما ان عائلة بن زميروا كانت عائلة كبيرة، ذات تفرعات،
وقد راكمت ترواث وعلى الرغم من أن ابراهيم كان الأكثر شهرة
حيث كان يحصل على اكبر الصفقات ففي سنة 1523 حصل على
إحتكار تجارة الصمغ والبردات بأسفي وأزمور من طرف الملك
البرتغالي كما رسي عليه المزداد لإحتكار تجارة الأقمشة⁴

مايير ليفي: تاجر يهودي كان مقيما بأسفي وكانت له علاقات
تجارية مع مراکش وفي سنة 1512 تكلف بصناعة مائة من
الزرايبي لحساب ملك البرتغال⁵

ويهودا أخ إسحاق بن زميروا كان تاجرا بأسفي ايضا وكان
بحوزته ايضا سنة 1514 هو وشريكه مايير ليفي 2000 حايك⁶

سليمان ابن أخيه هو الآخر كان من أغنى تجار مراکش بعد
وصول السعديين إليها . كما كانت له معاملات مع إسبانيا والبرتغال
إنتقل إليها سنة 1561 وظل بها سنة كاملة وقدم خدمات للأميرة
الوصية على عرش البرتغال مقابل 3700 دوكا⁷

¹ S ; I ; H ; M : tome ; II : p 482

² فقد كانت عائلة بن زميروا تاجر في أزمور ايضا وكان أفرادها يضطنون الى
جنب اسرة الديب باتوار طلائعية في هذا المجال

³ S ; I ; H ; M : tome ; II : p 491

⁴ المنصوري (عثمان) التجارة بالمغرب خلال القرن السادس عشر، م، ب، ص.
458

⁵ S ; I ; H ; M : tome ; I : p 366-653

⁶ Ibid t II : p 665

⁷ Ibid t III ; P : II - 328

وكل هذه الأنشطة التجارية التي أصبحت داخل المدينة وخارجها توضح قول الناصري عن التجارة بأسفي خلال الفترة : "وعمرت أسفي بالناصرى وانتقل إليها التجار وبنو بها الدور وكانوا يسقون منها الحب ويحملونه في السفن .."¹

فقد عرفت المدينة رواجاً تجارياً كبيراً خلال الفترة على اعتبار ، انها بوابة المغرب ، وميناء مراكش

فأصبحت أسفي مركزاً تجارياً مهماً لجمع المحاصيل المعروضة على البيع زيادة على الضريبة وكان الأعراب يفنون عليها يومياً أوفي بعض الايام مصحوبين بعدد من الجمال المحملة بالقمح أو الشعير²

ظهرت بالمدينة أهلية مختصة في شراء ما يعرض بالسوق في إنتظار إعادة بيعه كما من الممكن أن يباع للفلاح نفسه حين نفاذ مخزراته أوحين الشروع في الحرث ، كما يباع لوكلاء الملك حيث تسلم المشرف إسحاق بن زميروا 38 مدا³.

وكانت الكميات التي إقتناها الوكلاء التجاريون بأمر ملكي⁴ مهمة جداً في ماي 1512⁵.

بالإضافة إلى الحبوب كان يتم إقتناء الابقار ، والأغنام واللحوم ، بسبب جفاف 1520 إنخفضت أثمان اللحوم ، وكان تزويد وكلاء الملك باللحوم يتم بالمزايدة العلنية. وإلتزم أحد اليهود وهو " يعقوب توسن " ⁶ بتقديم 800 ربع بثمن يصل إلى 80 ريال لكل ربع⁷.

وكانت تؤدي أثمان السلع بالعملة المحلية ، بينما أمر الملك بأن لا يتم الأداء إلا بالعملة البرتغالية ولكن قلة هذه الأخيرة أرغمت

¹ الناصري (أحمد)، الإستقصاء، الجزء الرابع، م، ص. 141.

² S ; I : H ; M ; tome ; I : p 311

³ Ibid t II : p 244

⁴ حيث كانت تقتنى السلع حسب النفع ، دون اعتبار للسائكة ولاحتياجاتها

⁵ S ; I : H ; M ; tome ; I : p 311

⁶ قام هذا التاجر اليهودي بزيادة في ثمن اللحوم نظراً لملائمة الوضع لذلك حيث يحدد ربحاً أكبر الشيء الذي ساهم في مراكمة الثروات

⁷ S ; I : H ; M ; tome ; II : p 240- 242

الوكلاء على الإستمرار في قبول العملة المحلية والتجأوا في أحيان إلى تحويلها إلى عملة برتغالية وبذلك نجد ان فئة اليهود قد إشتغلت أيضا بسك العملة¹

هذا ولم يكتفي الوكلاء التجاريون بادوارهم التجارية فقط بل أصبحت لهم ادوار سياسية نظرا للوزن الذي أصبح لهم فقد أملى الوكيل التجاري بأسفي على بعض أعيان الإدارة بالمدينة والذين كانوا على إتصال به بعض المواقف السياسية منها عصيان قائد أسفي وطلب إرسال الجيوش والتجار البرتغاليين إلى مدينتهم²

وأنت المكتنة التي حصل عليها اليهود الى تقوي شوكتهم حتى أصبح من الممكن أن يمتنع التجار عن تسليم السلع إذا لم يتم تأدية ثمنها

فقد امتنع التاجر اليهودي ماير ليفي عن تسليم حياكه وحنابله إلى الملك البرتغالي إلى أن يبعث له الملك بالثمن الذي يحتاجه فقد كان يعاني الملك من نقص في المقادير الكافية من النقود والتي تسمح له بأداء كل المستحقات³

أمام هذا النقص إلتجأ الملك البرتغالي إلى أداء الرواتب وتحرير الأسرى بواسطة بيع سلعه وبثمنها يؤدي كل شيء ويشترى القمح وغير ذلك كما أمضى مع إسحاق بن زميروا في يناير 1529 صفقة أصبح بموجبها محتكرا للصبغ والبردرات بالمغرب، على أن يقوم بأداء رواتب الجنود في وقتها وأصبحت بعض السلع تقوم مقام النقود (صبغ، بردرات)⁴

وحضي الوكلاء التجاريون بالإشراف على المتجر الملكي واهتموا بكل ما يتعلق بالمبادلات: بيع السلع المستوردة وإقتناء السلع التي يرغب فيها الملك أووكلاؤه التجاريون الآخرون وكان يساعده قابض بالفيطورية .

¹ S : I ; H ; M : tome ; I : p : 149-471-611 612

² Ibid t III : p 39

³ Ibid t I : p 366-655

⁴ Ibid t I : p 259-366 t II ; 47- 425

كما كان بعض يهود أسفي إما تجارا أحرارا أو وكلاء فقد عملوا على جمع السلع الأكثر رواجاً وإعادة بيعها للبرتغاليين كالقمح والحنابل والحياك وكانت أسرة بن زميروا أكثر اليهود نشاطاً بل وإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه أصبح أفرادها يحتكرون بيع الأنسجة الصوفية والصمغ ويكثرون جمارك أسفي¹.

كما أصبح الإشراف على الجمارك يكثرى بالمزايدة العلنية من طرف اليهود².

وقد أعطت الضرائب الجمركية بأسفي، ما بين يونيو وديجنبر 1512 : 200 ألف ريال. ما يعطى معدلاً يصل إلى أكثر من 1100 ريالاً يومياً.³

وكان المكثرون برتغاليون ويهود خصوصاً من أسرة بن زميروا (ليفي مايل) بأسفي. وبلغ ثمن الكراء سنة 1520، 165000 ألف ريال.⁴

أصبح اليهودي مايل إلى جانب يهودي آخر يقومان بإنتاج وشراء كسوة الملك البرتغالي الذي كان يرسل لهم الأشكال التي يجب أن يتبعها وكلمة عجزاً عن تغطية حاجيات الملك بالإنتاج والشراء، يلجأ إلى خارج دكالة كما فعل مايل ليفي في نونبر 1514 بالحوز حيث اشترى ما قيمته 300 أوقية من أنسجة "أرغين" مع أنه كان يملك في نفس الشهر 200 من الحياك و100 من الحنابل⁵.

كلف الملك البرتغالي أخ إبراهيم بن زميروا ومايل ليفي بشراء وإنتاج الأنسجة الصوفية المغربية⁶.

قام مايل ليفي بإنتاج مائة حنبل ليبيعهما للفيطور⁷.

¹ S : I : II : M ; tome : II : p 221-544

² Ibid t II : p 378

³ Ibid t I : p 366

⁴ Ibid t I : p 330-653

⁵ Ibid t I : p 330-653655

⁶ Ibid t I : p 366-655

⁷ Ibid t I : p 366

أدى تزايد الطلب على هذه السلع بالملك إلى تكليف اليهودين بالإنتاج في وقت عرفت فيه تراجعاً للإنتاج بالمدينة مما خلق رواجاً تجارياً وتمركزاً مالياً يخص هذا القطاع وهذا لا يعني أنه لم يضر بالمنتجين الصغار إذ احتكر اليهوديون السوق بأكملها¹.

في سنة 1519 إتفق الملك البرتغالي وبعض اليهود على أن يسلموه في ثلاث سنوات 9000 حايك ويظهر ذلك من خلال الرسائل التي تتضمن الإيصالات حيث بينت أن أسرة بن زميروا هي التي كانت تحتكر الشراء والبيع ما بين 1513-1519².

أصبحت كذلك تجارة الصمغ في المغرب حكراً على أبناء بن زميروا الذين تعاقدوا مع الملك في هذا الشأن وقد باع إسحاق منها كميات مهمة بفاس³.

كما جلب التجار البرتغاليون ووكلاء الملك بالمقابل إلى أسفي عدداً من المواد الضرورية للصباغة وجعل منها الملك حملة تؤدي بها الرواتب وتعطي كاداء عن السلع التي تم شراؤها⁴.

ونظراً لأهمية تجارة الحايك والعبائن، فقد اعتمد الملك لجمع المواد الأولية على إيجاد وسطاء ما بين المنتجين القرويين ووكلاء الملك، الشيء الذي حرم المنتجين من أرباح يستفيد منها الوسطاء.

ولم تتوقف البوادي المغربية عن تقديم الأنسجة إلى أسفي، ولكن وبسبب الإضطرابات السياسية، عرفت هذه المواد تراجعاً كبيراً ويظهر ذلك في لجوء مايل ليفي إلى مراكش من أجل إقتناء ما يلزمه في نونبر 1514⁵.

¹ Ibid ; tome I ; p : 655- 653

² Ibid ; II:p 242

³ Ibid ; III:p 193

⁴ Ibid ; I:p 366

⁵ Ibid ; II:p 453

وقد كانت تجارة بيع الأسرى المغاربة تجارة مربحة أيضا، وشجع البرتغاليون على ذلك. ففي ماي 1512 كان أبراهام بن زميروا يملك 4 أسرى من أولاد عمران¹

هذا وقد ساهمت المجاعة التي ضربت المنطقة ما بين 1512-1520 في تشجيع الأشخاص على بيع أفراد من عائلاتهم مقابل ثمن زهيد.

وقد ضجر المنتجون من تعسفات البرتغاليين، نتيجة لإفراط القانمين على الضرائب في جباية المكوس وسرقة التجار البرتغاليين، فتراجع عدد الوافدين على المدينة لبيع حبوبهم كثيرا، مما حتم على اليهود الخروج إلى البوادي لشراء الحبوب هناك، وحملها إلى سوق أسفي².

وقد أعلن السعديون حربا تجارية على البرتغاليين قبل أن يعلنوا عليهم حربا عسكرية حقيقية فقد حاصروا أسفي سنة 1534 بعد حصار أكادير. ولم ينتصروا عسكريا إلا بعد ما هزموهم في الميدان التجاري بإفشال مخططاتهم بالمغرب وغرب إفريقيا.

فهذا الربط الجديد بين المغرب والسودان كان سببا وراء إنتصارهم عليهم بأكادير وأسفي وأزمور فوفرة ما كانت الطرق الصحراوية تضمّنه للمغرب من أموال وذهب، جعلت الإهتمام بالبحر الذي كانت الظروف الطبيعية والسياسية لا تحفز على خوضه أمرا ضروريا.

وأعطى إنسحاب البرتغاليين من موانئ أكادير وأسفي وأزمور نفسا جديدا لتجارة "التهريب" جنوب أم الربيع، لأن ذلك الإنسحاب فتح في وجه التجار موانئ كبرى، ولأنه زامن كذلك، إزدهار تجارة قصب السكر، وإحياء قوافل التجارة والاستقرار في الأوضاع، خاصة بعد تحكم السعديين وإشرافهم على إعادة توحيد البلاد³.

¹ S : I : H ; M : tome ; I : p 309

² Ibid t II : p 154

³ Ibid t III ; P: 220-223-357-362

كما يذكر مارمول كاريخال لجوء اليهود إلى مائة دار بأسفي بعد جلاء البرتغاليين.¹

وقد كانت الأراضي المحيطة بأسفي غنية بالقمح والمواشي والتجارة لا بأس بها منذ أن تركها ملك البرتغال لأن العديد من اليهود من مختلف المناطق بدؤوا يلجئون إليها²

كما ورد ذكر بعض الأسرى التي سلكي بعد عائلة بن زميروا في المصادر الدفينة الأرشفة الهولندي³ (أسرة آل بلاش وأدوارها في فترة مولاي زيدان).⁴

بل يضيف مارمول أن ميناء أسفي كان مزدهرا جدا، لكونه الأقرب للعاصمة مراكش، التي كانت في أوج توسعها، حوالي 1571.

وأن عدد اليهود ذوي الأصول الإيبيرية، لجنوا إلى الميناء، من المنظرهين بالدين المسيحي (مران) والذين عادوا إلى هويتهم وإيمانهم، و لم يكن هناك ميناء على نفس الدرجة من الأهمية بين سلا وأكادير بديوانته الجديدة للتجار الأوربيين مثل ميناء أسفي إلى غاية 1765.⁵

ب- وظائف أخرى

- 1- جمع الضرائب
- 2- افتكاك الأسرى
- 3- الترجمة
- 4- أداء رواتب الجنود

¹ ويرجع ذلك إلى توفر شروط احسن للعيش بالمدينة وتركز التواجد اليهودي والانشطة بها

² مارمول ' إفريقيا، م. س.، ص 71-72

³ عرفت هذه العائلة أيضا بقولها التجارية وخاصة في علاقة المغرب بهولندا ديبلوماسيا وتجاريا وزعيمها هو صامويل بلاش

⁴ S : I ; II : M. port ; tome : I ; II ; III : IV ; P : 609-610-611

مارمول كاريخال، إفريقيا، الجزء الثاني م. س.، ص. 71، الوزان (الحسن)، م. س.، ص. 174.

⁵ شمعون ليفي، الجماعة اليهودية لأسفي م. س.، ص. 177.

5- المفاوضات

6- القضاء

7- الطب

8- الجاسوسية

اضطلع يهود أسفي خلال هذه الفترة المدروسة، إلى جانب دورهم التجاري، بالعديد من الوظائف، التي حتمت في الكثير من الأحيان وجودهم الشخصي داخل المدينة، والتي جعلت بصمتهم واضحة في الفترة، حيث كان من الصعب الإستغناء عنهم في بعض الوظائف الحساسة، والتي فشل فيها المسلمون والبرتغاليون على حد سواء.

وقد نجح اليهود (المقصود الفئة التي تمت دراستها من خلال الأرشيف) في التجارة بشكل لافت داخل المدينة، إلا أن ذلك لم يمنحهم من مزاوله وظائف أخرى بالموازاة، إذ نجدهم قد مارسوا: المفاوضة وجمع الضرائب وكراء حق الجبلية، وإفتكاك الأسرى، وأداء رواتب الجنود والموظفين، والقيادة العسكرية، والطب الشعبي¹، والوساطة والترجمة، وصرف النقود وغير ذلك.

وبرغم التعدد الذي يبرز في هذه الوظائف، إلا أن الجدير بالذكر أن الأرشيف يوفر من المعطيات الشيء الكثير عن التجارة .

بينما تظل المعطيات الخاصة بهذا الشق² عبارة عن إشارات، الشيء الذي يفرض الحديث باقتضاب عن كل وظيفة على حدة، وإن جاز تعليل ذلك فمن الأرجح أن النشاط التجاري نال الحظ الأوفر في المراسلات التي تمت بين الطرفين نظرا لحساسيته بالنسبة للطرف المحتل (البرتغاليين) .

ومن بين المهمات التي كلف بها اليهود نجد:

¹ توجد العديد من الاشارات الى عدة وظائف بعضها يرتبط بالشق الاجتماعي، لكن فقط اشارات حيث ندرى ان بعض المهن بالفعل كانت في هذه الفترة وكان يمارسها اليهود لكن هذه الاشارات لا تسمح بالكتابة عن هذا الشق في البحث حيث واجهنا شح المعطيات.

² باقي الوظائف.

وقد سعى البرتغاليون، من خلال تكليف العنصر اليهودي بمهمة جمع الضرائب بالحصول على مداخيل أخرى لخزينة الدولة، فقد كان لها وزنها في المعاملات، حيث كلف أبراهام بن زميروا بتحصيل الضرائب لدى القبائل القاطنة بين أسفي ومراكش¹.

والظاهر أن التكليف كان يراعي وضعية اليهودي داخل فنته، إذ كلما كبر شأن الشخص المكلف كبرت مهمته، حيث نجد أبراهام وهو كبير عائلة بن زميروا في هذه المناصب، بينما نجد أفراداً من عائلته، يقومون بنقل جبايات الضرائب إلى أسفي من مناطق قريبة².

إن الحديث عن إحتكار اليهود لهذا القطاع، لا يثني عن الحديث عن الأطراف البرتغالية، التي كانت هي الأخرى تقوم بهذه المهمة، نظراً لشساعة المساحة من جهة، ولتعدد إختصاصات اليهود المسؤولين من جهة ثانية.

وقد قام الحاكم البرتغالي رفقة جيش مكون من 500 فارس برتغالي وأكثر من 2000 فارس من الأعراب سنة 1514، بجمع الضرائب ما بين مراكش و سوس³.

وكان اليهود يحملون هذه الضرائب المفروضة على السلع، إلى القائد العام بأسفي، حيث يحملها بدوره إلى البرتغال⁴.

كما حصل الملك البرتغالي، بفضل مداخيل جمارك بعض الموانئ، مداخيل بلغت خلال 6 أشهر - يونيو/ دجنبر 1512 - 200.000 ريال⁵. مما شجعه على جعلهم المشرفين على الضرائب نظراً للنجاح الذي حققوه.

¹ S.I.H.M. Archive p^ortugais ,tome II, P: 345-348-349

² Ibid t II, P443

³ الوزان (الحسن)، وصف إفريقيا، م. ب.، ص. 151.

⁴ دي طوريس (تيفغو)، تاريخ الشرفاء، م. ب.، ص. 18-9.

⁵ يوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي، م. ب.، ص. 183.

اليهود يشرفون على الأمكاس والجبايات وإصدار السكة كما اشتغلوا بالصرف إلا أن أهم الأدوار الاقتصادية لعبها اليهود النازحون¹ من شبه الجزيرة الإيبيرية فقد جازوا بخبرة وصناعة مهمة².

2- افئكاك الأسرى

وقد انضاف الى جانب مهمة جمع الضرائب عمل آخر إكتسب هو الأخر طابع الحساسية فقد قام اليهود أيضا بإفئكاك الأسرى البرتغاليين من يد المسلمين (القواد المحليون)، وخاصة بين سنتي 1523 و1526، وقد باشر هذه المفاوضة الصعبة: التاجر اليهودي أبراهام بن زميروا رفقة عائلته (خاصة إخوته)، وقد كللت جميع محاولاته بالنجاح³.

لقد إعتبر الأسرى في هذه الوظيفة، بالنسبة للطرف المحتجز، بضاعة من نوع خاص-، حيث كان أبراهام وهو يفاوض ذلك الطرف، يقوم بالإتفاق معه على ثمن الفدية، بالعمل على إرضاء الطرفين ويظهر في أحيان كثيرة حياده⁴.

ونظرا للأموال التي كان يتم تداولها في هذا النوع من العمليات، فقد كان الطرفان، يشترطان في الشخص المكلف، أن يكون ثقة، كي لا يفر بثمن الفدية من جهة، وكي لا يميل كفة طرف على كفة الآخر من جهة ثانية.

في غشت 1526 عندما أراد الملك تحرير باريكا أرسل أبراهام بن زميروا سلعا غطت قيمتها الفدية ليقوم بذلك⁵.

هذا ما أدى باليهود إلى إحتكارها، وإلى البروز كمتخصصين في هذا المجال، فبالإضافة إلى أبراهام نجد أخاه إسماعيل⁶، الذي كان يزاول التجارة إلى جانب ذلك.

¹ حيث كانوا يولون الاهتمام لبعض الصناعات كصناعة السكر والأسلحة

² Slouche ; Etude sur l'histoire des juifs au maroc ; Archives marocaines vol VI ; 1906 ; p : 151

³ S.I. H.M. Archive portugais , tome II, P313-323-367

⁴ Ibid t III, P227- T IV P : 155

⁵ Ibid t.tome II, 372

⁶ Ibid t II, P -323-348-371

فمن الضروري أن نشير إلى الدور الفعال الذي قامت به التجارة في تبسيط الطريق أمام باقي الوظائف، لأنها عرّفت بالأشخاص، وجعلتهم على علاقة جيدة بمختلف القوى، مما إختصر الكثير من الجهد على هذه الفئة، وجعلها تستفيد على عدة مستويات، وخاصة في أوقات الذروة (أثناء المعارك بين المسلمين والبرتغال داخل المجال).

3- الترجمة

كما برع اليهود في وظيفة بالاهمية بما كانت في تلك الفترة، فالترجمة كانت وظيفة حساسة ومفصلية في تعامل اليهود مع أهل المنطقة وفي نجاحهم في مهامهم ما لم يتمكن من انجازه المسيحيون من قبل.

حيث كن يعمل جل المترجمين اليهود، داخل وخارج المدينة، وفي المفاوضات، وعقد الصفقات، كما وإحتكرت عائلة بن زميروا أيضا هذا القطاع.

حيث نجد يعقوب روط¹ الذي عين في 7 يوليوز 1523² بمدينة أسفي وموسى درديروا³ ويحيى الذيب (يهودي من أزمو)، ويوسف ليفي ابن إسماعيل بن زميروا⁴ وهذه بعض الاسماء فقط التي افصحنا عنها الوثائق ومن المرتقب ان تكون اكثر من هذا، تماشيا مع عدد التجار والمناطق وحجم المبادلات

وقد تقاضى اليهود على هذه المناصب، زيادة على المكانة التي كانوا يحتلونها، رواتب هامة، حيث تقاضى "موسى دارديروا" عن الترجمة بالمدينة 6400⁵ ريال سنويا⁶.

¹ Serfaty (Nicolas) : Les Courtisans juifs des sultans marocains XIV -XVIII Siècles :paris ; 1999 ; P : 124

² S.I .H.M. Archive portugais ,tome III, P413

³ Ibid t I, P305 -328

⁴ Ibid t; III, P 137-416

⁵ نظرا لاهمية هذه الوظيفة وحساسيتها فقد شكلت مصدرا للاعتداء فقد ساهمت ثقافة هذه الفئة ومعارفها الغنية وحتى المكتسبة في "الارض الجديدة الى سرعة تكيفها واستغلالها من الاوضاع.

⁶ S.I .H.M. Archive portugais ,tome; I, P609-

ومن الواضح أن حجم الاستفادة من هذه الوظيفة، لم يقتصر على الجانب المادي والإجتماعي، بل شمل مجمل العلاقات ما بين البرتغاليين وما بين المترجمين، وهذا يرجع بالأساس إلى الجانب العلمي- الثقافي، لهذه الفئة دون غيرها من اليهود الأصليين، مما أعطاهم حق إحتكار هذا الميدان بطريقة سلسة .

وقد كانت هذه الوظيفة، داعما لقبول وجود الطرف اليهودي في المحادثات، وفي مفاوضات السلام، وذلك ما قام به "ليطاو" ¹ الذي قام بإرسال أحد أقرباء بن زميروا (لم يذكر إسمه)، والذي كان مترجما، رفقة "دورات لوبيز" للتفاوض مع الشريف .²

كما ساهم المترجمون إلى جانب ذلك كله، في كتابة التقارير التي ترسل إلى الحاكم، وذلك ما نجده في رسالة "تونيودي أتايد"³ إلى الملك إمانويل الأول، في 27 ديسمبر 1514 يخبره فيها، أن أخاه "الفاروا"، يبحث حول تصرفات يحيى وقد قام إسماعيل بن زميروا بدور مترجم، لمساعدته في ذلك.⁴

4- أداء رواتب الجنود .

أما فيما يخص أداء رواتب الجنود، وهونوع آخر من الوظائف التي اضطلع بها يهود هذه المدينة، والتي لم تنحصر فيها لوحدها، بل وكانت إسهاماتهم إلى جانب الملك، داعمة له في أوقات الشدة (في بعض الأزمات التي لا يتوفر فيها للملك المال).

حيث كان هؤلاء يدفعون رواتب البرتغاليين - جنودا وموظفين-، على شكل تسبيقات يعوضون عنها فيما بعد. ولأن جل الوظائف إحتكرت من طرف عائلة بن زميروا، لم تخرج هذه الوظيفة عن سابقاتها.⁵

¹ قائد برتغالي حاكم سفانا كروز حسب ما ورد في بعض الرسائل والتي كانت تصدر كلها من سفانا كروز.

² S.I.H.M. Archive portugais ,tome III, P438

³ تونيودي أتايد، حاكم برتغالي على مدينة أسفي كانت له علاقات متشابكة جيدة مع اليهودي أبراهام وسينة مع يحيى أوغوفت.

⁴ S.I.H.M. Archive portugais ,tome II, P667

⁵ Ibid t III, P143

وقد سبب غياب أبراهام بسبب زيارة إلى البرتغال، اضطراباً في هذا الصدد، حيث قام "فرنشيسكو كوميث"¹ وهوشريك أبراهام، بنفع رواتب الموظفين في أزموور نيابة عنه²

كما قام "إسحاق بن زميروا" في يناير 1529، بإمضاء عقدة مع الملك تم بموجبها إحتكاره للصمغ والبردات، مقابل أدائه رواتب الجنود في وقتها.³

وبسبب سجن بن زميروا، ظهرت مشكلة أخرى في مدينة أزموور سنة 1530، حيث أضحت المدينة تعاني اليأس والفقر والمجاعة، لأن المستحقين لم تدفع مدة سنة كاملة في الرسالة الموجهة من: "بيدرو ماسكرينهاس" إلى الملك يوحنا الثالث، فنود العقد، تنص على كونه الوحيد القادر على الأداء كله، وأنه لا يمكن لأي شخص تحمل المسؤولية مكانه.⁴

5- المفاوضات

كما نجد اليهود قد شغلوا مناصب أخرى من مثل: المفاوضات، وقد برز ثقلهم في تسييرها. وذلك ما تعبر عنه الوثيقة المؤرخة ب 23 أبريل 1528 في سائتا كروز من "أنطونيولييطاودي كامبوا" إلى يوحنا الثالث. والتي يخبره فيها، أنه وصل إلى سائتا كروز في 28 فبراير 1528.

فبعد مجيئه قام هذا الأخير بالمرور عن طريق "دورات لوبيز" الذي طلبه الملك، وقد أرسل معه "الملك" عربونا على السلام بينهما كما بعث بقاء ونبلأ إلى قصره، هذا الأخير كان يرغب في علاقات ودية معه ليرسل ليطاوا رجلاً⁵ يمكنه التفاوض معه⁶

كان يتولى مايير ليفي⁷ المفاوضات 1523 بإسم البرتغاليين مع السعديين لإطلاق سراح أمير برتغالي.

¹ تاجر برتغالي، كان مقبلاً أزموور، سنة 1529.

² S.I.H.M. Archive portugais ,tome II, P330- 490 – 493

³ Ibid t I, P259- 366

⁴ Ibid t III, P : 536

⁵ كان رجلاً يهودياً.

⁷ وهو تاجر من عائلة بن زميروا.

قام كذلك أبراهام بن زميروا بتولي مهمة المفاوضات مع المغاربة، وظلت علاقاته جيدة مع الجميع، فقد لعب دورا في عقد هدنة مولاي أحمد السعدي سنة 1525¹.

كان الدور الذي لعبه أبراهام بن زميروا وأخواه إسماعيل وإسحاق كبيرا إلى حد أن الوساطة بأسفي إقتصرت على هذه الأسرة فقد استطاع إسحاق الحصول على حيل الناصر الهنثاني وقبائل الشرقية حين الهجوم الثاني على أزموور معا سهل سقوط المدينة وهو الذي دفع أتايذ إلى الهجوم على السعديين بعد استقرارهم بالشياظمة².

استطاع كل من أبراهام وبني الذيب بأزموور الحصول على ثقة القبائل التي كانت تطالب أحيانا بحضورهما³ حين المفاوضات⁴.

وأبرز أبراهام في إحدى الرسائل أنه ينتظر قرار الملك الذي يمكنه من المفاوضة في هذا الشأن كما يطلب الربى رسالة تسليف أو تمويين من الملك من أجل إدارة المفاوضات مع المغاربة، كما طلب منه أن يعامل من طرف دي أتايذ كخادم لصاحب السمو⁵.

كما كان أبراهام وإخوته على إتصال مستمر بالملك وكلف أبراهام بالتفاوض مع الشريف السعدي بعد دخوله مراكش وتضييقه الخناق على أسفي⁶.

6- القضاء

ولم يكن مجال القضاء مجالا بعيدا عن وظائف اليهود، إذ لم يكن بالإمكان تسيير ميناء مكون من 2000 إلى 250 000 نسمة، في مدينة كاسفي، دون أخذ بعض التدابير السياسية، وبذلك قامت

¹ المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب خلال القرن السادس عشر، م، ص، ص. 458.

² S.I .H.M. Archive portugais ,tome III, P572

³ أصبح المغاربة انفسهم يطالبون بحضور اليهود نظرا للشهرة التي اكتسبوها في المفاوضات

⁴ S.I .H.M. Archive portugais ,tome II, P204

⁵ Ibid t I, P : 281

⁶ Ibid t I ; P281

الدولة البرتغالية بتعيين الربى أبراهام بن زميروفى منصب القاضى¹.

وهذا المنصب يشمل البث فى القضايا ذات الشأن الإقتصادى، أكثر من باقى القضايا، بحكم درايتة أكثر من غيره بهذه القضايا .

7- الطب

ولم يترك اليهود الطب، خاصة الشعبى فالذاكرة الشعبية اليهودية، تحتفظ كما قال "شمعون ليفى" بـ"العجيب والخارق- من التداوى وحكايات الشفاء التى أدت الى شهرة محج ابن زميروا - وكان أبراهام طبيباً فى الأصل-، فقد كان يتردد عليه يهود ومسلمون.²

فى تلك الفترة كما فى فترات لاحقة بعد ذلك³، وقد عرف اليهود بإتقانهم لهذه المهنة، وذلك ما تدعمه رواية تتحدث عن شفاء مسلمين زاروا الضريح، وقد أوردها شمعون ليفى وغيره.⁴

كما يحكى أنهم كانوا يقومون بشفاء المجانين واستعمال سكنى المعجزات - فى الحلم- وإحالة المريض إلى الولي الموجود بالزمور إذا لم يتوفر لأولاد بن زميروا الدواء.⁵

8- الجاسوسية

كما لعب اليهود إلى جانب كل ما قبل دوراً فعالاً فى الحفاظ على التواجد البرتغالى فى المدينة، فى رسالة مؤرخة ب3 يناير 1511 من "نونيو دوكاطو" إلى "إمانويل الأول" يعلم فيها "نونيو"

¹ DeGois (Damiao) ; Les portugais au maroc de 1495 a 1521 Rabat ; 1937/ 178-177 من ليفى(شمعون)، م.س.، ص. 183.

² ليفى (شمعون)، الجماعة اليهودية لأسفى، م.س.، ص. 183.

³ الى يومنا هذا لازال الضريح يحظى بقيمة خاصة لدى اليهود وقد اتضح لنا ذلك من خلال قراءة ما كتب عنه وكذا من زيارة الضريح حيث يتردد عليه اليهود من كل انحاء العالم بل وتقام به الهبلولة فى غشت من كل سنة.

⁴ كما إشتهروا إلى جانب الطب بباعهم الواسع فى السحر وذلك ما لا تلمح عنه المصادر بحكم طبيعة الموضوع وإن كثرت بعض الإشارات فهي لا تخص المدينة وإنما يكون الحديث عن الموضوع بشكل عام . بينما تحتفظ الذاكرة الشعبية بهذه الوظيفة وفى أحيان كثيرة تجعلها لصيقة بهذه الفئة.

⁵ ليفى (شمعون)، م.س.، ص. 184.

الملك أن مدينة أسفي ساحة معركة وأن نونيودي أتيد قد خرج لمهاجمة الغزاة .

كما قام كاطوبوصف نقيق لخطّة المواجهة وللقائد العسكريين واخبره أن في قطاع " نورنها دي رودريغو" يوجد اليهود تحت إمرة "اسحاق بن زميروا" و"مايل" الخدمة والقيادة العسكرية¹

في رسالة مؤرخة ب29 ماي 1512 بأسفي من نونيودي كاطوإلى إمانويل الأول يخبره فيها أن إسحاق بن زميروسلم رسالة الملك إلى شخص مجهول.

وفي بلاغ مؤرخ ببداية 1513 ضد يحي أوتغوفت ينصح شيخ الغربية بن يهودا² أربع زوجات بالذهاب عند يحي أوتغوفت "شيخ القبيلة"³

ورد في رسالة مؤرخة 1527 من مسعود بن ناصر إلى "الكونط لينهاريس"

يظهر فيها دور الوساطة في تبليغ مضامين الرسائل عن طريق أبراهام بن زميروا حيث يقول "... وقد وصلنا اليهودي ولا رأينا منكم معه كتاب ونحن كتبنا للسلطان جواب كتابه مع أبراهام الحزان اليهودي ونحن منتظرين وبعدهن (بعد ذلك) يجيب الجواب"⁴

كذلك في رسالة أخرى بتاريخ 4 مارس 1528 من الكونط دولينهاريس إلى أحمد العطار يخبره فيها بسعائته أنه توصل من الربّي أبراهام بن زميروا بخبر سار حيث يقول: "كثير الغروالحشم.. نعلمك بأن كثير فرحت نرا كتابك وبى أعراف الخير منك الذي أعطاني ربي (الحاخام) أبراهام"⁵.

في رسالة مؤرخة ب30 ماي 1541 من "إيناسيو نونيس" إلى يوحنا الثالث بأسفي

¹ S.I .H.M. Archive portugais ,tome I, P : 271

² هنا اشارة الى تولى هذه الشخصية وظيفة حساسة حيث كان شيخا، وبما انه على علاقة بالاستعمار فقد يتم تبادل المعلومات في هذا الصدد.

³ S.I .H.M. Archive portugais ,tome I, P: 378

⁴ Ibid t II, P: 412-413

⁵ Ibid t II, P434- 435

فقد حصل "إيناسيو" من اليهودي سليمان بن زميروا¹ ابن أخ
أوأخت أبراهام الذي أتى من مراكش على وجه السرعة من أجل
إخباره معلومات عن المغاربة لأن المغاربة وخاصة الشرفاء يتقون
في اليهود².

كلف بعض اليهود الى جانب كل ما سبق الإعتناء بالأعيان حين
إقامتهم بأسفي على نفقة القبطان³.

كما كلفوا بإصطحاب الأعيان الذين يرسلون إلى البرتغال
للإتصال بالملك وبالوساطة لدى القبائل والتفاوض معها بشأن
الخصوع وشروطه⁴.

ولعب دارديروا في هذا الصدد دورا مهما جعل كلا من
القبطان والكونتور ينوّهون به.

¹ يوصف هذا الشخص في هذه الوثيقة بأنه رجل ثري ومنطقي ومعقول.

² S.I.H.M. Archive portugais ,tome III, P406

³ Ibid t I, P173 t II; p: 321

⁴ Ibid t I, P309 – 351

نخلص الى القول بأن الحديث عن تاريخ الاقليات بالمغرب، ارتبط بدون شك بفئة أكثر من غيرها، فالمضطلع على حجم الدراسات المنجزة يعلم ان الجماعة اليهودية قد استأثرت بنصيب الاسد في هذا الصدد، وذلك يرجع بالاساس الى كونها الفئة الوحيدة التي عاشت في مختلف ربوع الوطن، وعلى الامتداد الزمني للدول.

اذ كان نواجدها ذا بصمة خاصة لا يجعل الدارس لأي فترة تاريخية يمر دون أن يشير اليها من قريب او من بعيد، في احيان كثيرة فاعلة في المجال وحوله، وأخرى مفعولا بها، استجابة لما تمليه الظروف . واذ نتحدث عن فاعليتها، نستحضر نموذج يهود أسفي الذي من الممكن القول عنه بعد كل ما توفر من معلومات، انه متميز لا تشبهه في الكثير من حيثياته نماذج أخرى داخل المغرب .

خصوصيات المرحلة وطبيعة العلاقات التي جمعت بين مختلف الاطراف، وتلاحق الاحداث وسياقاتها، كانت في غالب الاحيان تمللي على كل طرف على حدة طريقة التصرف. تداخل وتعقد المهام التي اختار اليهود القيام بها او املتت عليهم، دون الغوص في الحثثات، يجعل من الصعب التعميم .

طبيعة الروابط التي جمعت بين مختلف الفئات (اليهود فيما بينهم- البرتغال - الساكنة)، تجعل من المستحيل ايجاد الميكانيزمات المتحركة فيها، فأيجادها يتطلب اتخاذ المسافات الحقيقية من الأشياء، وهذا ما تطبعه النسبية.

هذا وتنبغي الإشارة الى ان اعتماد المقاربة ذات البعدين الاقتصادي والسياسي في دراسة هذه الجماعة وبالرغم من حجم التحديات والمتعلقة بالاساس بالمادة المصدرية لا يثنيها من الحديث عن البعد الاجتماعي والذي يعتبر من اهم المداخل.

فالمدينة توفر من المعطيات المادية ما يسمح بقيام دراسة وازنة، من شأنها الكشف عن عدة معطيات ولا ادل على ذلك من

وجود مقبرتين واضرحة وعدد كبير من المساكن ترجع للفترة
حسبما تشير الى ذلك بعض الكتابات .

ويطرح هذا الشق من الاشكالات الحقيقية الكثير، خاصة في
ظل غياب المادة المصدرية فدراسة هذه الفنة لا يتم بشكل اقرب الى
الشمولية دون المرور عبر كل المداخل .

وبدل التوقف عند اعتبار هذه الخاتمة خلاصة للبحث لما لا
نعتبرها نقطة الانطلاق والركيزة التي يمكن ان نبني عليها ابحاث
اخرى في المستقبل.

لائحة المصادر والمراجع باللغة العربية

- ابن عذاري (المراكشي)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1948
- البكري (أبو عبيد الله)، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، طبعة دوسلان، 1957
- الناصري (أحمد)، الاستقصاء، الدار البيضاء، الجزء الأول، 1954
- الحموي (ياقوت)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الجزء الأول 1979
- الإدريسي (الشريف)، نزهة المشتاق في إختراق الأفق، تحقيق محمد حاج صائق، طبعة بلجيكا، 1983
- الوزان، (الحسن)، وصف إفريقيا، الجزء الأول، ترجمة محمد حجي، محمد الأخضر، الطبعة الثانية، 1983
- كاربخال، (مارمول)، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بن جلون، الجزء الثاني، دار النشر للمعرفة، 19
- الصنهاجي الحميري (محمد بن عبد المنعم)، الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق : إسمان عباس، طبعة لبنان، 1984
- ابن الخطيب (لسان الدين)، نفاضة الجراب في غلالة الإغتراب، المغرب، 1985
- الزعفراني (حليم)، ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب: تاريخ ثقافة، دين، ترجمة : أحمد شحلان، عبد الغني أبو العزم، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 1987 .
- ندوة، أسفي : دراسات تاريخية وحضارية، الرباط 1989 .
- بوشرب (أحمد)، المغاربة والبحر خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، مجلة بحوث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية: المحمدية، العدد 4، 1991
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، تاريخ بن خلدون، بيروت، الجزء السادس 1992
- بوشرب (أحمد)، وثائق محاكم التفتيش، مصدر من مصادر تاريخ الثقافة والعقليات بالمغرب خلال القرن السادس عشر، مجلة بحوث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، العدد 5، 1993

- بوشرب (أحمد)، دكالة والإستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور، دار الثقافة، 1999
- ندوة، تاريخ إقليم أسفي من الحقبة القديمة إلى الفترة المعاصرة، مؤسسة دكالة .. عبدة للثقافة والتنمية، الطبعة الأولى 2000
- المنصوري (عثمان)، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر : مساهمة في تاريخ المغرب الإقتصادي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2001 .
- أنطونا (أرمأن)، جهة عبدة، ترجمة علال الركوك، محمد بن الشيخ، جمعية البحث والتوثيق والنشر، الطبعة الأولى، 2003
- كريدية (إبراهيم)، أمثلة من مجاعات وأوبئة وكوارث ضربت أسفي وبانيتها منذ الإحتلال البرتغالي وحتى أعوام البون، أسفي 2004
- كريدية (إبراهيم)، صفحات من تاريخ يهود أسفي، الطبعة الأولى، 2004
- بلوز، (محمد)، صفحات من تاريخ أسفي، جمعية البحث والتوثيق والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، 2004
- الكاتوني (محمد)، أسفي وما إليه قديما وحديثا، الطبعة الأولى، 2004
- باكوري، (محمد)، اليهود والمخزن في عهد الدولة السعدية، أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، 2004
- ندوة، الوجود البرتغالي في المغرب وأثاره، أسفي، 2004
- كريدية (إبراهيم)، بصمات المحيط الأطلسي في تاريخ وعمران حاضرة أسفي، جمعية أسيف لحماية التراث الثقافي والمعماري، الطبعة الأولى، 2008
- كريدية (إبراهيم)، حفريات في تاريخ مقابر أسفي وإقليمها: المقابر بأسفي تاريخ وتراث، الطبعة الأولى، 2010
- زيارة ميدانية مارس 2012
- أكنوش (عبد اللطيف)، تاريخ المؤسسات والوقائع الإجتماعية بالمغرب، إفريقيا الشرق، دت
- بنكرعي (حليمة)، ترجمة وثيقة برتغالية مصدرها الخزنة الوطنية البرتغالية بلشبونة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيظرة .

لائحة المصادر والمراجع باللغة الفرنسية

- ❖ DECHNIER(M) ; histoire de l'empire de maroc ; 3 tome ; paris 1652
- ❖ Doutté (edmond); Merrakech ; paris 1905 .
- ❖ Les sources inédites de l'histoire de maroc ; tome 1.2.3.4.5.6 ; archives des pays -bas ; 1906
- ❖ GOULVEN(joseph); safi au vieux temps des portugais; lisoba ; 1938
- ❖ Eugène (aubin) ; le maroc d'aujourd'hui ; 7 eme edition ; paris ; 1912
- ❖ Les sources inédites de l'histoire de maroc ; tome 1.2.3.4.5. ; archives de Portugal ; 1934
- ❖ Encyclopédie de l'islam; tome I ; A -B ; PARIS ; 1960
- ❖ Maroc ; les guides bleus ; 2ème edition ; hachette ; 1987
- ❖ Doutté (edmond); mission au maroc en tribu ; paris ; 1994 .
- ❖ DEGENIVAL (pierre); tatouages des prisonniers marocaines ; tone V ; 1995
- ❖ Assraf (robert) ; mohammed V et les juifs du maroc a lépoque de vichy ; plon ; 1997
- ❖ Deverdun (gaston) ; Marrakech des origines a 1912 ; casablanca ; 2004
- ❖ Benhima (yassir) ; safi et son territoire : une ville dans son espace au maroc ; (11-16 siècle) ; paris 2008 .
- ❖ DEGENIVAL(pierre) ; la légende du juif iben méch'al et la fcte du sultan des tolbas
- ❖ Conseil de la communauté marocaine a l'étranger et conseilnationaldesdroits de l'homme ; la bienvenue et l'adieu : migrants juifs et musulmans au magreb XV-XX siècles . volume 1-2-3 ; edition : la croisee des chemins ; 2012.
- ❖ De périgny (maurice) ; au maroc : Marrekech et les ports du sud ; nouvelle edition ; paris ; s.d
- ❖ Zimerman (maurice) ; villes et paysages au maroc ;

ملحق رقم 1

جرد لأهم الرسائل المعتمدة في البحث بالارشيف البرتغالي
للمصادر الدفينة بموضوعها السياسي والاقتصادي

الشق السياسي	الشق الاقتصادي
04mai 1509	27février 1510
05 décembre1510	1 ^{er} juillet1510
03 janvier 1511	03 janvier 1511
12 octobre 1512	17 mars 1511
Début de 1513	29 mai 1512
28 maes 1514	25 mars 1514
11 septembre 1514	27décembre 1514
12 septembre 1514	15 novembre1527
12 septembre 1514 (02)	03 avril1528
25 janvier 1515	06 mars 1529
26 septembre 1527	15 septembre 1529
03 mars 1528	14 octobre 1529
04 mars 1528	20 juin 1530
03 avril 1528	-----1542
30mai 1541	

ملحق رقم 2¹

أيدمون عمران المليح المفكر المغربي الأسفي



صورة للمحتفى به يوم تكريمه

¹ - نص المداخلات التي أقيمت في حفل تكريم الأديب إيدمون عمران المليح يوم 2008/6/27 بكلية علوم التربية الرباط، والذي أقامته جمعية البحث والتوثيق وجمعية حوض أسفي. وقد ارتلنا نشر هذه المداخلات ضمن هذا العمل نظرا لوحدة الموضوع.

مديح الانتماء تكريما للمبدع البهي:

إدمون عمران المليح

مصطفى محسن*

(نص الكلمة التي ألقيناها في الحفل التكريمي الذي أقامته جمعية حوض اسفي) فرع الرباط، احتفاء بالكاتب الكبير : إدمون عمران المليح، وذلك يوم 2008/06/27 بكلية علوم التربية بالرباط، لذا وجب التذكير والتوثيق).

أيها الأحبة، أيها الحضور الكرام، طيب الله أماسيكم بكل خير. هاهو شملنا، أيها الأعزاء، يلتئم من جديد لنقتصص عنوة من عناد الزمن المتمنع الهارب منا، لحظة الفرح المجنح هذه، لنعلن الرفض جهارا لكل ما يباعد، يفرق، ينسي، ينيم- ولو إلى حين - ما يعتمل في الدواخل من مشاعر ولواعج وذكريات...

نلتقي هنا، كما عودتنا على ذلك جمعيتنا الفنية المناضلة (حوض اسفي) لنكرم بعض أبناء مدينتنا المخلصين البررة، ننزع هذا (الحوض) من قيود وعوارض الزمان والمكان، لنحمله إلى هنا والآن، وإلى ما فوق التحديدات والتخوم المادية المحسوسة، ولنسكنه في الفكر والقلب والذاكرة حضنا سخي العطاء وفيضا من حب متوهج على الدوام.

هكذا يند المكان عن أن يظل - كما عبرت عن ذلك في نصوص سابقة - مجرد فضاء، مساحة للعيش والتساكن والعمل والأمل والأحلام ... ليغدو قبسا نوراني التكوين، يسكننا في كل أزمنة وأمكنة الإقامة والظعن وأثناء الحل والترحال ... هكذا هي اسفي كما أعشقها، رغم البعد. تقيم في خلدي معنى ساميا، بعراقه تاريخها، بحاضرتها وريفها بتقافة وعادات وتقاليد البحر المتأصلة

* - عالم الاجتماع وكاتب/ الرباط

فيها، بأهلها الودعاء الطيبين، بمنأخها عذب الفصول والنفحات، وبكل ما ينضج منها من قيم النضال والكذب بهاء الوطنية الصادقة.

غير أن فريدة هذه اللحظة بالذات، خصوصيتها وبهجتها المتميزة البانخة مستظل في ذاكرتنا الجماعية وفي سجل جمعيتنا، علامة بارزة فائزة. ذلك أننا نحتمي فيها بهذا الألمعي الفذ المفكر الأصل رجل المبادئ والقيم الوطنية والإنسانية النبيلة: إدمون عمران المليح، هذا الأديب والكاتب المفلق، الذي زف إلى العالم كله مدينته والوطن بكامله على صهوة جماليات وإبداع فكري وأدبي ضافح بمعاني المحبة والإخاء والتعاون والتسامح والتفتح والحوار واحتضان جميع ألوان التعدد والاختلاف والتنوع البشري الخلاق... في الفكر والمعتقد والسلوك والجنس واللون والموطن والموقف والانتماء...

لذا لم يكن غريبا على وطنية وأصالة إدمون عمران المليح أن يعشق في وطنه مسقط الرأس، وأن، يجعل منه موئل العودة الظافرة، بعد أن ألقت به عواصف الغربة - ولعقود من الزمان- بعيدا عن مرتع الصبا وموطن الأهل والأحبة والرفاق، يكابد في مكابرة وجلد وأناة، أهوال منافيه الاختيارية والقسرية منها على السواء، كان الوطن قد استقر في الصميم وتغلغل في أغوار الوعي واللاوعي من شخصية إدمون عمران المليح فوسم بميمسه الهوية والثقافة واللغة والذاكرة ونمط العيش ورؤية المفكر والأديب للذات والآخر المغاير بل وللعالم برمته ... ومن حمولة هذا الانتماء المتجذر، ومن حكمة التجربة وخبرة المراس وعمق الدرس والتكوين ... صاغت الموهبة وبراعة الصنعة وجودة الكتابة هذا الأديب الرفيع، الذي أمسى في الفكر المغربي والعربي المعاصر، منارة مضيئة مثيرة للتقدير والاهتمام.

ولا ريب في أن هذه القرابة التي تضمنا جميعا لترابطنا بالفة المكان هي التي تجعلني - أنا الذي ابتعدت عن أسفي زهاء الأربعين سنة - أحس، حين أتأمل بالذات بعض أعمال وفضاءات حكي إدمون عمران المليح، أوحين أقرأ إنتاجات بعض المبدعين الأسفيين، أنها تخصني، تخاطبني بلغتها

وأفكارها وشخصيتها ... وأنها كتبت لأجلي، أوكان علي أن أكتبها أنا، أوأني قد قمت بذلك فعلا، ومنذ أن بدأت أحبو علي مدارج الكتابة وأنا في ريعان الصبا أواسط الستينات من القرن الذي مضى. وهكذا تشخص، أمام الذاكرة والرواية، مصارع أبواب بيوت عتيقة، والتواءات دروب وأزقة، وروائح بحر، وأضرحة وجوامع وزوايا ومقابر وبيع وكنائس، وملاحم بحارة قدامى، وأسماء وجوه عرفت هنا وهناك: في سيدي عبد الكريم، أشبار، الفخارة، باب الشعبة، لمريسة، سيدي أبوالذهب، قصر البحر، المغيتين، أولاد بن زميرو، بين السور، اجنان عيلان، السقالة، شارع الرباط، تراب الصيني، أرحاة الريح، أهرايات البيض، سيدي بوزيد، والقائمة طويلة ... أنتزع الآن من ذاكرة الزمان والمكان أسماء ألقت سماعها في جو عوشي عفوي مشترك: مايير، نسيم، لمعلم الطاهر، الدعاجي، البخاري، ميتينى، ماشو، ولد جودام، جاك، جيلي، للا زهرة، وزينة، وخديجة وطامو وأولكا، والخالة شميحة، اوسميحة، (لا أذكر الاسم بالضبط) معالجة الأطفال، والتي ربما جعل الله في بركة يدها المداوية الرحيمة بعض الأسباب الخفية لبرني وشفاتي لأعيش وأواصل الحياة حتى الآن، فله في خلقه حكم وعبر وشؤون . كان ذلك في أوائل خمسينات القرن الماضي وما تلاها ... وقد تبذلت بعد ذلك ظروف وتغيرت معالم وتوالى على الأمكنة والناس أحداث وأزمان، وتقاوبت أحوال ومسرات وأهوال.

لقد كانت هذه السماء والوجوه التي أذكرها الآن بهذه المناسبة النادرة، وعلى اختلاف مهنها ومساكنها وأديانها وجنورها المدنية أو القروية وانتماؤها وخلفياتها الاجتماعية المتباينة ...، مشهدا أو معزوفة من سمفونية سكانية بمدينتنا اسفي، في مستهل وغضون الفترة المذكورة ، متناغمة المدارج والحلقات، هارمونيا اجتماعية ساحرة ميزت وما تزال فريدة وخصوصية وحضارة هذا المغرب الرائع الجميل.

لذا فإننا حينما نهب، في هذا المحفل البهيج، لنحتفي بكل الحب وصدق الطوية والنوايا، بهذا العلم الساطع المشع : ادمون

عمران المليح، فإتينا لا نكرم فيه فردا واحدا - وإن كان فعلا بملك استحقاقية وجدارة هذا الاحتفاء - وإنما نكرم فيه، وبكل المعاني النفية الراقية الأنفة المدينة للوطن والأمة بكاملها . ذلك أن مثل هؤلاء الرجال الأفذاذ المميزين هم، بأفكارهم وأعمالهم وهاماتهم الكبيرة، نياشين شرف واعتزاز وفخر على صدور المجتمعات والشعوب.

بكل هذه الدلالات والأبعاد العميقة للتكريم نحتفل بالفرح بإدمون عمران المليح بيننا متألقا بهيا، مكبرين فيه الإنسان / المواطن المخلص الغيور، ورمزا لجيل الرواد المناضلين في بلدنا، والمثقف المليزم المنتصر دوما لقضايا وقيم ومبادئ الحق والخير والجمال، ولأنسنة مؤصلة سامية لمعاني ومسلوكيات الحب والمودة والرحمة والتأخي والعيش المشترك بين الناس في سلم وتضامن وأمان...

وبهذه الصورة المشرقة لإدمون عمران المليح نريد أيضا أن نقدمه لأجيالنا الجديدة الصاعدة أنموذجا ومثالا في المواطنة والعمل والكفاح والعطاء، وإسوة حسنة قميئة بالاستلham والاقتداء في كل خصالها الفكرية والإنسانية النبيلة الأصيلة التجدر والانتماء، المجافية لقيم ومسلوكيات الرذالة والعقوق والانحلال...

لهذا استحثكم جميعا أيها الجمع الكريم لنقول بصوت واحد مخلص لإدمون عمران المليح : دامت لك مسرة الإبداع وبهجة التألق ومتعة الكتابة، رغم هواجسها وألمها الجسام .. ودام لنا كلنا هذا الحب الكبير الذي نحمله في قلوبنا للمدينة والوطن، شعلة منيرة هادية تلم الشمل، تشحذ العزائم، توحد المطامح والجهود والنضال، وتدفعنا إلى أن نجعل من الخير، قيمة وفعالا، زاد الطريق والمقصد الأصل للحياة.

إدمون عمران المليح كما عرفته.

الأستاذة : نورة بوقفطان*

أود قبل كل شيء أن أتقدم بالشكر والامتنان لجمعية حوض اسفي فرع الرباط على المبادرة الطيبة التي جعلتنا نلتف اليوم حول أبينا الروحي المبدع والكاتب الفذ السيد إدمون عمران المليح، إنه بحق احتفاء وتكريم مستحقان، وعن جدارة لأسباب لا تخفى على الحاضرين، لكنني سأقف عند بعضها في هذه الورقة:

أولا، إدمون عمران المليح هو ابن مدينة اسفي التي شهدت مسقط رأسه سنة 1917 حيث ترعرع فيها إلى أن انتقلت العائلة إلى مدينة الصويرة وبعدها إلى مدينة الدار البيضاء، كما أنه من أبرز وجوهها الثقافية، نعم اسفي التي لم ينسأها أستاذنا أبدا سواء في كتاباته أو أثناء تجاذبنا أطراف الحديث حولها، فيتصر لكون المدينة لم تأخذ حظها من التنمية والاهتمام، بل لا زالت تنن تحت وطأة معاملها الكيماوية التي كانت وبالا على البشر والحجر، لذلك عندما كانت مؤسسة إدمون عمران المليح تضع برنامجا ثقافيا منذ سنتين كانت اسفي ضمن هذا البرنامج على موعد مع اللقاء الذي خصته المؤسسة للحديث عن تاريخ اسفي بمشاركة عدة فعاليات ثقافية وجمعية، وكان اللقاء رائعا والحديث شيقا عن خرف اسفي وتاريخه ويهود اسفي ومعجم أسماء أسماكها الطيبة وأصولها اللغوية.... الخ.

ثانيا : لأن إدمون عمران المليح يعتبر مكونا أساسيا واستثنائيا من مكونات الأدب والثقافة المغربيين، وهو بالتالي يحتل موقعا متميزا ليس داخل حدود الوطن فحسب بل خارجه.

* نورة بوقفطان : أستاذة بالمدرسة العليا للأساتذة التقدم الرباط

واستثنائية اديمون عمران المليح كما لا يخفى على احد تتبع من كونه كاتباً مغربياً يهودياً يشجب الصهيونية منبها إلى مخاطرها بإصاف الشعب الفلسطيني في موقف لا يقبل المسومة، وذلك في اكبر المحافل الدولية والوطنية، إلى جانب ذلك هو يكتب باللغة الفرنسية معلناً حبه لها هذا الحب لا يضاهيه إلا عشقه للدارجة المغربية ذات الحضور القوي في كتاباته سواء في شكل مفردات أو تعابير ذات الحمولة الثقافية والاجتماعية العميقة .

وإذا كانت الفرنسية هي لغة الكتابة لذا ايدمون عمران المليح فهو لا يتوانى عن شجب الفرنكوفونية ونبذها، مع العلم أن أعماله الروائية قد ترجمت عن آخرها إلى اللغة العربية.

في ظل هذه المعطيات كانت الشخصية المغربية وحتى لا أقول الهوية المغربية، بمكوناتها الثقافية والاجتماعية والسياسية بما فيها القضية الفلسطينية حاضرة بقوة في كتابات المليح الروائية.

كما هو معلوم كتب ايدمون عمران المليح رواياته خارج المغرب ابتداء من المجرى الثابت 1980 ثم أيلان أوليل الحكي 1983 وألف عام بيوم واحد 1986 وعودة أبو الحكي 1990 وأبو النور 1995، هذه الروايات طفت على سطح الوجدان بكل تلقائية أثناء إقامته في فرنسا ما بين باريس ومنطقة (لومولان) المتواجدة في عمق الريف الفرنسي بمنطقة (بوركون)، هناك كتب - المغرب الباطني - على حد قول دانيال روندو وكأني به يفند المثل القائل " بعيد عن العين بعيد عن القلب" .

هذه النصوص بالإضافة إلى جمالياتها المردية وأسلوبها المستعصي عن التناول قراءة وترجمة، تقدم للقارئ شهادة على تاريخ المغرب على التحولات الاجتماعية والثقافية مغرب التنوع والانسجام (يقول) في روايته ابنير أو أبو النور ص 86 () .

قراءة النص:

من أعماق فرنسا تشرق الصورة، صورة اسفي المدينة الصغيرة التي عرفت تعايشاً رائعاً بين مختلف مكوناتها البشرية،

من مسلمين ويهود وامازيغ وأسبان وبرتغاليين، أول كنيسة إلى جانب البيع والجوامع، وأول سينما، فيضلات وادي الشعبة، أول مقهى وأول دكان عصري، الناصر البسطاء والريحية التي تأخذ لونها من الطحال ... المدينة تعلن عن نفسها والملح يؤكد " لم يفعل مقامي بالخارج سوى تقوية شعوري بالانتماء إلى هذا البلد" لذلك يصعب التمييز بين كتابة الرجل وحياته الأهلة بالأحداث واللوجوه والأصوات والألوان، يقول الملح في مقالة بعنوان : حياة حكاية لا حكاية حياة " (ملاحظات حول السيرة الذاتية) من ترجمة الأستاذ محمد برادة:" لابد من أن نذكر بهذه الحقيقة الجوهرية لفهمها وهي أن الذات تتكون في علاقتها مع الآخرين وما هو صحيح على الصعيد الفلسفي صحيح تماما وبكيفية ملموسة على الصعيد الأدبي، إنني لا شيء ولا أجد بالمعنى القوي للكلمة إذا لم تتدرج أيضا كائنات أخرى داخل مجال رؤيتي، وفي وصفة الكتابة ونظام الوجود الذي تؤسسه ... وإذا لم يتقاطع مجرى حياتي من أجل حبك نسيج واحد، وإنني إذا فشلت في أن أهبهم الحياة فذلك يعني محاولة مخطئة على الصعيد الإبداعي " ص 7 .

تعج فضاءات روايات ايدمون عمران الملح بالأحداث والمواقف والأشياء العادية في حياتنا اليومية ... الدار البيضاء وأحداثها الدامية 1965 والصورة بأسوارها التاريخية وصخب التجار على أرصفة ميناء أصيلة المدثرة ببياضها داخل أزقتها العتيقة وأناسها البسطاء، هناك حيث وقف الكاتب على قبر آخر يهودي يموت في أصيلة هذه المدينة البحرية الصغيرة قائلا (هذا اليهودي الأخير في أصيلة ولن يكون في مقنور أي يهودي أن يموت داخل هذا البياض أو أن يولد في هذا النور الظاهر).

إلى جانب هذه القيمة الإبداعية والثقافية هناك خصال الرجل الإنسانية الرفيعة منها قدرته على بناء جسور الصداقة، فأصدقاء الملح يمتدنون من أعلى المراتب إلى أبسطها وكثيرا ما أكون برفقته فيتقدم للسلام عليه رجل أو امرأة، حارس عمارة أونادل في مقهى أو مطعم أوبائع الجرائد أو حارس سيارات أوبائع الخضار ... الخ

يلتفت إلي مشيراً بيده إلى ذلك الشخص قائلاً كنقدم إليك فلان راه صاحبي ...

في حركة تحث على وجوب الاحترام والتقدير لهذه الشخصية التي يقدمها لك، ايدمون عمران المليح، فالحظ بريقاً يشع من عيني الشخص فرحاً ممنوناً، لأنه في هذا الزمان الذي طغى فيه حب المادة والمظاهر الزائفة، هناك إنسان عظيم يفخر بصداقته هذا الرجل البسيط التائه في دوامة الوجود الصعب.

كل يوم يزداد لدي الاقتناع بأن الصداقة هي أيضاً إحدى المواهب المتعددة لهذا المثقف الإنسان .

الأديب إدمون عمران المليح من خلال كتاب: الكتابة والهوية القائلة للكاتب يحيى بن الوليد

محمد بالوز*

بمدينة أسفي المطلة على المحيط الأطلسي وفي المدينة القديمة حيث كانت تتعايش الأمر المسلمة واليهودية وحتى المسيحية ولد الكاتب والمفكر المغربي اليهودي إدمون عمران المليح 30 مارس سنة 1917م من أسرة مغربية يهودية كان استقرارها بمدينة الصويرة من أمد بعيد.

وقد قضى طفولته بمدينة أسفي صحبة والده الذي كان يشتغل ببيع الحبوب وتصديرها، وقد شهد أحداثا عرفتها مدينة أسفي لا تزال عالقة بدهنه كالقطار الذي كان يخترق شارع الرباط ليحمل الأتربة والحجارة إلى الرصيف المينائي الجديد الذي شهد كذلك وضع الحجر الأساسي له وهولا يزال طفلا صغيرا.

كما يتذكر الحالة العامة التي كانت عليها طوائف الزوايا ومواسمها وحفلاتها التي كانت تقيمها بمناسبة بعض الأعياد الدينية الإسلامية، وهويتذكر كيف كان موسم حمادة يمر وسط المدينة بصخبه وبطقوسه الغريبة عن الإسلام، وكيف كان يطلب من اليهود عدم الخروج أثناء مرور هذه الطوائف حفاظا على أرواحهم وحتى لا يتعرضون لسوء من طرف هؤلاء الجهلة الذين تبرا من أعمالهم جل الفقهاء المسلمين، ولكن سلطات الاحتلال كانت تشجع هذا النوع من الخرافات لحاجة في نفسها.

وإدمون عمران المليح أصر على الحفاظ على هويته المغربية طول حياته رغم ثقافته الفرنسية، وهويته تراثا عميقا يتلبس فيه الثقافي المحلي المغربي اليهودي بالتقافي العالمي في أدق

* - استاذ باحث في التاريخ الرباط.

تصوراته. وهوبذلك يكون له فريدة مخصصة داخل حقل الثقافة المغربية بشكل عام.

هاجر المليح إلى فرنسا حيث استقر بباريس على اثر الأحداث الدامية التي عرفها المغرب سنة 1965 والمعروفة في التاريخ المغربي المعاصر بأحداث 23مارس 1965 والتي كانت الدار البيضاء مسرحا لها، استقر بباريس واشتغل بالصحافة حيث اصدر كتابا تناول فيه سيرته الذاتية تحت عنوان (المجرى الثابت) سنة 1980 ثم أضاف إليه كتابا آخر (ايلان أوليل الحكيم) سنة 1983 ثم كتاب (الف عام بيوم واحد) سنة 1986 وكتاب (عودة أبوالحكي) سنة 1990، هذه النصوص بالرغم من صعوبتها فقد ترجمت إلى اللغة العربية.

كما ساهم في التعريف بفن الرسم المغربي حيث اصدر كتاب (صبغة احمد الشرقاوي) سنة 1976 ثم كتابين آخرين كرسهما للفران خليل لغريب (العين واليد) سنة 1993 و(رحلة الجبر البحرية)، بالإضافة إلى مقالاته حول الرسامين المغاربة في مختلف المجالات الثقافية، كما ساهم إلى جانب المصور الفوتوغرافي احمد بن إسماعيل بكتاب تحت عنوان (نور الظل) سنة 2003 ويعني به سيدي سليمان الجزولي بمراكش، كما أنجز كتاب (الصورة) سنة 2000.

كما أسهم في ما يسمى بالسرد المفتوح بكتاب (أم خليل لغريب) سنة 2002 ودار الشمع سنة 2005، وفي مجال النقد الأدبي والفلسفي أسهم بكتاب (المقهى الأزرق) سنة 1998 الذي يعالج فيه إشكالات اللغة والهوية والكتابة، أما في مجال القضية الفلسطينية وفي المنظور الذي لا يبعد بينها وبين المسألة اليهودية، أسهم فيها بمقالات كثيرة، ولاسيما مقاله الشهير يهود مغاربة ومغاربة يهود المنشور في مجلة الأزمنة الحديثة سنة 1977 .

أما آخر كتبه وهو(حوارات) سنة 2005 فهو عبارة عن مجموعة من الحوارات أجرتها معه الكاتبة الفرنسية (ماري رودونيه) على مدار زمني يزيد عن السنة، هذه الحوارات قائمة

على أسلوب الرصانة والدقة، إذ نشعر أننا بإزاء كتاب كاشف عن ادمون عمران المليح والمغرب في آن واحد، في وحنثه المتنوعة، ولعل هذا ما يجعله في منأى عن التلقي المبسط أو التداول المتسرع، انه بدوره يفرض على القارئ فكرة مغامرة القراءة على غرار مغامرة الكتابة لدى الكاتب.

والكتاب يسعى إلى تقديم حوار شامل يعطي صورة واضحة عن ادمون عمران المليح الذي أكد على هوية الكاتب، إذ يعود بذاكرته إلى أيام الطفولة والشباب بأسفي ثم إلى النضال السياسي حيث انخرط في الحزب الشيوعي بدءا من سنة 1945 وبذلك يعتبر من المؤسسين لهذا الحزب حيث تحمل مسؤولية الكتابة في صحيفة الحزب (الأمل) تحت اسم مستعار هو (عيسى العبدى) وهذا الاسم يجعلنا نحس أن الرجل لا يزال متشبهاً بمسقط رأسه أسفي عاصمة عبدة، لكن على اثر متغيرات محلية وعالمية سيقطع ادمون عمران المليح ارتباطه بالحزب الشيوعي الذي دام من سنة 1945 إلى سنة 1959، وتجدر الإشارة إلى أن اللقاء بالسيدة ماري سيسيل ديفور سنة 1959 سيكون حاسما على هذا المستوى.

وعلى الرغم من القطيعة المبكرة مع الحزب الشيوعي إلا أن ادمون عمران المليح لم ينج من الاعتقال على اثر حوادث الدار البيضاء الدامية 23 مارس 1965، ونتيجة لهذه العوامل سيقرر الرحيل إلى باريس رفقة زوجته ماري سيسيل من اجل حياة هادئة جديدة.

وأثناء إقامته بفرنسا ظل يتابع ما كان يجري في بلده المغرب الذي غادره مرغما، وكان يتحين الفرص لزيارة بلده المغرب وقد أتاحت له سنة 1975 من اجل المشاركة في أحد اللقاءات الثقافية بمدينة أصيلة التي سيصبح موسما الثقافي موسما عالميا بفضل مجهودات أبنائها.

وقد ظل هاجس العودة يسيطر على عقل ادمون عمران المليح إلى بلده المغرب حتى يساهم في الحقل الثقافي المغربي وخصوصا في الأدب المغربي المكتوب بالفرنسية، وسيعود نهائيا إلى المغرب

سنة 1999، ويقر ادمون بان عودته كانت تحولا شاملا في حياته بل وتدشين لحياة جديدة.

وبعد هذه العودة سيتم الاهتمام به وطنيا ورسميا حيث سيتمتصيفه التلفزيون المغربي كاديب ومفكر مغربي كما سيتم توشيح صدره بوسام الاستحقاق الفكري الذي وشحه به ملك البلاد جلالة الملك محمد السادس نصره الله يوم الاثنين 16 فبراير 2004 بمدينة الصويرة التي يكن لها ادمون جبا كبيرا.

ونظرا لمكانته الفكرية وانتاجاته الأدبية التي يشيد فيها بأهمية مدينة أسفي مسقط رأسه، فقد عمدت فعاليات أسفي الثقافية بدعم من جمعية حوض أسفي بإقامة حفل تكريم لهذا المفكر المغربي الذي كرس شبابه لخدمة بلده المغرب سواء في نضاله النقابي في فترة الاستعمار الفرنسي للبلاد، أو من خلال تدريسه لمادة الفلسفة في المؤسسات التعليمية المغربية مكونا أجيالا من المثقفين المغاربة الذين لازالت تربطهم به علاقات الود والاحترام والتقدير .

حضر هذا الحفل ثلة من أبناء أسفي وبعض المفكرين والأدباء والفعاليات السياسية من مغاربة ويهود مغاربة، حيث أقيمت كلمات أشادت بالمحتفى به، كلها ثناء عليه وعلى ما كتبه عن المغرب وعن الثقافة المغربية سواء اللغة الفرنسية أو ما ترجم له إلى اللغة العربية.

وفي كلمة موجزة منه عبر عن اغتباطه بهذا التكريم الذي أعاد له اعتباره كمفكر مغربي ينتمي إلى مدينة أسفي، تلك المدينة التي لازال قلبه متعلقا بها، يذكرها في مجريات حديثه عن الثقافة المغربية كحصن وقلعة رابضة على ضفاف المحيط الأطلسي الذي اكسبها سمعة وشهرة بفضل منجزات أبنائها على مختلف ميولاهم الفكرية والسياسية والعقائدية.

الحبرا : كلمة عبرية تشير إلى الغة التي تتكلف بالعموى من حيث الغسل والصلاة دون اي مقابل. Hebra

تقديم منشورات حول مدينة أسفي¹

محمد بن الشيخ* .

في سياق العمل الذؤوب الذي تقوم به جمعية البحث والتؤيق والنشر للكشف عن مخزون منطقة اسفي الوثائقي والرصيد الفكري والثقافي، نشرت في سنتها هذه 2008 عملا وثائقيًا من سلسلة ثلاثية تعتبر في اعتقادي ذات طابع خاص .

وقبل النخول في التفاصيل أريد أن ابدا أولا بالوصف البيبلوغرافي لهذه الثلاثية :

إنها تتكون من ثلاث وثائق متكاملة فكريا وكرونولوجيا :

الوثيقة الأولى بعنوان :اسفي زمن الحماية من خلال مذكرات عبد الرحمن بن الشيخ، وهي في 152 صفحة من الحجم المتوسط صادرة سنة 2008 عن جمعية البحث والنشر والتؤيق ، مع تقديم وتصدير وتعليق عليها بقلم المؤلف، ثم بعض الصور والمستنسخات.....

الوثيقة الثانية بعنوان : اسفي من خلال جريدة العلم من سنة 1946 إلى سنة 1951 الجزء الأول، وهي في 125 صفحة من الحجم المتوسط مع تصدير وتقديم ومقدمة من طرف المؤلف .

الوثيقة الثالثة بعنوان: اسفي من خلال جريدة العلم من سنة 1951 الى 1956 وهي في 160 صفحة من الحجم المتوسط مع تصدير وتقديم ومقدمة من طرف المؤلف. لقد قلت عنها إنها وثائق ذات طابع خاص، بحيث يقتضي الحال ضرورة قراءتها كاملة لاسيما وإنها تتكامل وتتداخل بحيث تعطي القارئ في الأخير صورة واقعية وحية عن مجال خاص وعن مرحلة معينة، وهي تكتسي

¹ - يتعلق الأمر بمنشورات جمعية البحث والتؤيق والنشر لسنوات 2007/2008.

* - أستاذ باحث ومترجم، توفي وم 4 نؤوبر 2008 ودفن في مقبرة سلا.

هذه الصفة أيضا كونها وثائق تنطلق من نوعية خاصة في الكتابة: كتابة عن واقع بطريقة غير مباشرة، والكاتب فيها أوالراوي إذا شئتم هو في نفس الوقت فاعل في أحداثها ومنفعل بها .

ثم إنها وثائق تدور حول مرحلة تاريخية معينة وفيها سلاح القارئ ذلك، حرص بين ملامسة الأحداث اليومية وهي في كامل طراوتها، مع ما يدخل في ذلك من السعي إلى تسجيل الانطباعات الشخصية، سواء كان ذلك في المذكرات أو في المراسلات ذات الطابع الصحفي، وفي رأيي إنها كتابات ذات جمالية وإبداع بأسلوبها السهل الصادق وبالطابع النقدي والسجالي والساخر أحيانا ...

وكيفما كان الحال فإنها كتابات تهيم عليها قضية المغرب المحتل بصفة عامة كما تتخللها بصفة خاصة تلكم التفاعلات التي كانت تحيط بقضية المغرب في أيام الحماية وفي السنوات القليلة بعد الحصول على الاستقلال.

ومن جملة ما يمكن استشفافه أيضا من خلال هذه الوثائق هي قدرة الحركة الوطنية آنذاك على التأطير وعلى تنظيم المواطنين وطرق النضال ومجابهة الاستعمار بمختلف الوسائل الممكنة ... وفي خضم هذا كله كانت الصحافة حاضرة وهي تعتمد على وسائلها المحدودة المتاحة في مواجهة مؤسسة الاستعمار ذات الإمكانيات الضخمة، بحث عملت كما سلاح القارئ على الفضح والجدال وتبادل الرأي بالرأي والحجة بالحجة...

إذن نحن بين أيدينا والحالة هذه عمل وثائقي يريد أن يرصد فترة تاريخية معينة من تاريخ مدينة اسفي، كما أننا نتعامل هنا مع عمل وثائقي يندرج في إطار البحث والتوثيق مخزون ذاكرة مدينة اسفي .

وعلى ذكر المدينة اسمحو لي أن استطرد معكم قليلا في هذا الاشتغال على المدينة وفي أي إطار علمي يمكن أن يصنف.

نعم لقد أصبح الاهتمام بحاضر المدن وماضيها ومستقبلها يندرج في عصرنا الحديث ضمن تخصص علمي متعدد الأبعاد، بحث يشمل في طيه التاريخ والجغرافية والاقتصاد وعلم الاجتماع والثقافة.

وإذا كانت المدن في الماضي يشار إليها في إطار ما يعرف بال عمران حسب المفهوم الخلدوني، بحث إنها كانت في العهود الإسلامية توصف بكونها نارة إيالة السلطان حيث تمتد سلطاته ويسمى صيته ويدعى باسمه في خطب الجمعة وعلى منابر المساجد، كما كانت توصف بأنها حاضرة السلطان المحروسة حيث يعيش هو وعصبيته وجنده ورعيته ووزراؤه وشعراؤه وخدمه وصناعه وكانت إلى جانب هذا كله تسمى عند بعضهم ببيضة الإسلام التي يتولى السلطان حسب البيعة بحراستها وحمايتها من أطماع الأجانب الكفار.

وهكذا إلى أن جاء العصر الحديث حيث أضحت الاهتمام بالمدينة يدخل في إطار تخصص علمي جديد يشار إليه باسم التمدن أو التعمير، وهو تخصص حديث يقول عنه الباحث المعماري بول بيروك: إذا أردنا أن نعطي تعريفا للتمدن فعلينا أن نربط بينه وبين تدبير المدن، وهو عبارة عن دراسات نفسية تتكبد على المناهج التي تجعل من الممكن إحداث قدر من الموافقة بين سكنى الناس وبين حاجياتهم اليومية ومتطلباتهم المادية والمعنوية .

أما العالم العمراني بارديت فيعتقد وبشكل أكثر تباينا عما سبق بأن تدبير المدن هو اليوم عبارة عن مجموعة من التخصصات، فهو علم يهتم بمعرفة الأشياء والاستناد على تحليل دقيق، وانطلاقا من هذه القاعدة إنه يمكن اعتباره فنا تطبيقيا يتجاوز ما هو نظري نحو المجالات التطبيقية وذلك في ترابط مع القيم الإنسانية في شموليتها أي تدبير المدن هو فلسفة في جوهره.

أما المعماري بروسست فيشير إلى أن صيغة تدبير المدن قد تولدت في سنة 1912 عند عدد من المعماريين والمهندسين، وفي هذه الفترة كان هذا النشاط يحتل عند اليوطي -الذي كان مقيما عاما

بالمغرب في فترة بداية الاحتلال الفرنسي للمغرب - مركز الدائرة في إطار الطروحات الكبرى المعنية بتهيئة المدن، وكان ذلك في شمال أفريقيا بالضبط وفي دول أفريقيا المستعمرة، ويعتبر المغرب في هذا السياق، الدولة الأهم التي تبوأ مركز الصدارة في هذا الشأن حسب بروس دانتا.

أيها السادة والسيدات، لقد أوردت هذه التعريفات لكي أقترح على جمعيتنا أن يكون الاهتمام بمدينةنا اسفي وبغيرها من المدن انطلاقاً من هذا المفهوم الحديث الذي يدخل في اعتباره مختلف الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية والحاجيات الأساسية التي توفر شروط الحياة الكريمة للإنسان، وهنا بالخصوص وأن العالم اليوم قد أصبح يعيش طفرة في البحوث العلمية المختصة المعنية بهذا القطاع، وأن الأمم المتحدة من جهتها قد خصت الإنسان ببرنامج خاص يعرف ببرنامج الأمم المتحدة للإسكان يحاول أن يتجاوز ذلك المفهوم الضيق للمدن باعتبارها تجمعات سكانية وبنيات تحتية وخدمات وكفى.

وبالعودة إلى هذه الوثائق الثلاث، انصح بقراءتها لما في ذلك من متعن استحضار الماضي والصور والوقائع، واليكم هذا المثال الذي اقترحه للتأمل: ففي صفحة 103 من الوثيقة الثانية (اسفي من خلال جريدة العالم 1946 إلى 1951) وفي الباب السلاس حول مادة انتشار التعليم ومضايقات سلطات الاحتلال نقراً ما يلي: العلم عدد 854 الجمعة 17 يونيو 1949 ص 5 :

اسفي: الهداية الإسلامية، نتائج امتحان الشهادة الابتدائية العربية في اسفي، عدد المرشحين 20 الناجحون 13 ومنهم: احمد بن محمد الخزامي، ابوزيد بن عبد الرحمن الشقوري، عبد الله بن المامون الغنيمي، عبد الرحيم بن احمد الشايفي، عبد الرحيم بن احمد الوزاني، عبد الرحمن بن علال بن الشيخ، عبد الواحد الريكوش، عمر بن عبد السلام الشقوري، علال بن احمد الواصلي، فاطمة بنت احمد الولادي، حسن بن علال الشراذي، عبد الله بن محمد السكوري .

وهؤلاء من توفاهم الله تعالى ومنهم من اعرفهم معرفة شخصية وعائلية، ومن من أصبح برلمانيا ومن فعاليات اسفي المعروفة، ومنهم من درسني شخصا بالابتدائي أو بالإعدادي، واترك لكم صلاحية التعليق .

وهذا مثال آخر من الجزء الثاني هذه المرة ودانما في تيمة التعليم يقول الخير في صفحة 145 بعنوان اسفي الدورة الثانية لشهادة الدروس الابتدائية العربية، وهو مؤرخ بيوم 27 أكتوبر 1951: مدرسة الهداية الإسلامية تقدم 44 تلميذاً نجح منهم 33 كالتالي: حورية المصباحية، حليلة البواب، حبيبة الوزاني، خديجة الشيخ، السلوي خديجة، خديجة الحمري، ربيعة الدمني، ربيعة بن جدة، زبيدة كوار، زبيدة السهلاوي، شامة واعزيز، فاطمة الصديقي، فاطمة عباس، فاطمة عبد الله، مليكة علان، زهراء الدمني .

والفتيان وفيهم: عبد الله الولادي، عبد الحق البوفي، محمد السوسي، محمد الهداجي، محمد الشياظمي، محمد الغنبري، وآخرون .

ولقد كانت أختي من بينهم، وكانت الشهادة الابتدائية في تلك الأيام تحمل عدة توقيعات للمسؤولين ومن بينهم قاضي المدينة هو أيضاً.

والظاهر أن الشهادة كان لها شأن وألف شأن، أما اليوم فقد كثرت الشهادات وقلت البركة

هذان المثالان يدلان على الدور الذي ساهم به التعليم الحر في تعليم وتنوير وتكوين أبناء وبنات المغاربة في فترة عصيبة من تاريخ المغرب.

بقيت عندي كلمة أريد أن أقولها في حق مؤلف هذه الوثائق الأستاذ الباحث محمد بالوز شكرا جزيلاً أخي محمد لقد جعلتني اشعر بالاعتزاز بكوني انتمي إلى هذه المدينة، والسلام. الرابط في 2008/6/27: محمد بن الشيخ .

مقدمة عامة 3

الفصل الاول : الاصول والاوزاع 11

1-نبذة تاريخية حول مدينة أسفي..... 13

2-الوضع السياسي للمدينة خلال القرنين 15-16 22

3-الاصول الاثنية ليهود المدينة..... 44

الفصل الثاني: العلاقات والوظائف 49

1 - علاقة اليهود بالقوى المحلية..... 50

2- علاقة اليهود بالبرتغال..... 61

3- أنشطة ووظائف اليهود: 77

خاتمة 104

- لائحة المصادر والمراجع باللغة العربية..... 106

- لائحة المصادر والمراجع باللغة الفرنسية..... 108

ملحق رقم 1: جرد لأهم الرسائل المعتمدة في البحث بالارشيف
البرتغالي للمصادر النفينة بموضوعيها السياسي والاقتصادي... 109

ملحق رقم 2: إيدمون عمران المليح المفكر المغربي الأسفي... 110

- مديح الانتماء تكريما للمبدع البهي: إدمون عمران المليح..... 111

- إدمون عمران المليح كما عرفته..... 115

- الأديب إدمون عمران المليح من خلال كتاب: الكتابة والهوية
القاتلة للكاتب يحي بن الوليد..... 119

- تقديم منشورات حول مدينة أسفي..... 123



ليلى انحايلة

أستاذة التعليم الثانوي التأهيلي،
حاصلة على دبلوم الماستر (التاريخ
الحديث والمعاصر) بكلية الآداب
والعلوم الإنسانية المحمدية.

من اهتماماتها العلمية البحث
في تاريخ يهود المغرب، والتاريخ
الجهوي.

ضمن الكتاب وقائع حفل تكريم
الأديب إدمون عمران المليح
يوم 27 / 6 / 2008
بكلية علوم التربية الرباط.

